الفصل الرابع عشر

المأساة السورية وخروج الوحش

"غياب الحكمة يخلق وحوشًا"

مثل شعبي أسباني، وموضوع اللوحة الشهيرة للفنان الأسباني فرانسيسكو غويا.

عندما يقوم زعيم القاعدة أيمن الظواهري بدعم المعارضة السورية، فإنه يتوجب علينا أن نطرح على أنفسنا تساؤلاً عن ذاك الطرف من الصراع الذي سنقوم بدعمه بالسلاح إذا ما قررنا ذلك.

هيلاري كلينتون وزيرة الخارجية الأمريكية (2009-2013م) **ومرشحة الرئاسة الأمريكية** (2016م).

كانت المقدمات الاجتماعية السياسية والفسيولوجية للانفجار التونسي والمصري قائمة أيضًا في سوريا. وقد بدأت معالمها تتضح منذ سنوات طويلة. كان الفساد المتفشي في الجهاز الحكومي والنظام السلطوي وقمع الأجهزة الأمنية يثير حنق وغضب جزء كبير من العامة. وكانت الشعارات التي ينادي بها حزب البعث – الوحدة والحرية والاشتراكية – قد فقدت جاذبيتها وعفا عليها الزمن. وكان احتكار حزب البعث للسلطة يثير بلبلة لدى المواطنين السوريين المنفتحين على العالم الخارجي، ويتمتعون بمستوى تعليمي مرتفع نسبيًّا.

وقد تميز المجتمع السوري عن غيره بتنوعه الطائفي والعرقي. فأغلب السكان من المسلمين، ويمثلون 86 % فيما تبلغ نسبة المسيحيين 10% (نصفهم من الأرثوذكس) فضلاً عن 3 % من الدروز و 1 % طوائف أخرى. وأغلب المسلمين من السنة وتبلغ نسبتهم 82 % والباقي من الشيعة والعلويين والطائفة الإسماعيلية. ويعتقد أن العلويين يمثلون 10% من السكان ويبلغ تعدادهم 2-2.5 مليون نسمة. ولا يمكن القول بأن كل هذه الأرقام دقيقة تمامًا، ولكنها تكشف عن توزيع نسب الطوائف والديانات المختلفة.

وبـــدا الوضع طوال عقود طويلة على النحو التالي: ســـيطرت طبقـــة التجار والصنَّاع من المســـلمين الســـنة على الاقتصاد، أما العلويون فانخرط أغلبهم في الجيش والشرطة وأعضاء في حزب البعث، وأصبحوا بعد عدد من الانقلابات قوة مسيطرة ونافذة داخل الجيش والمخابرات وأجهزة الأمن والجهاز الحكومي. وكالعادة في الشرق نجد السلطة تجلب المال، حيث أصبحت الطبقة البرجوازية الصناعية والتجارية من المسلمين السنة تتقاسم الثروة والنفوذ مع العلويين.

ويتوزع الأكراد بين أربع دول هي تركيا وإيران والعراق وســـوريا (يبلغ إجمالي عد الأكراد حوالي 30 مليون نســـمه فيما يرتفع حسب تقديراتهم إلى 40 مليون). ويمثلون في سوريا ما نســـبته 10 – 12 % من عدد الســـكان أي حوالي مليوني نسمة. وقد انتقل إليهم مئات الآلاف من أكراد تركيا. ويعيش أغلبهم في شمال شـــرق ســـوريا وهناك تجمع كردي في شمال حلب بالقرب من الحدود مع تركيا وتجمع آخر في مدينة حلب نفســـها. وقد انضم الأكراد إلى معارضي النظام القومي السوري تحت سيطرة حزب البعث. وشجعهم على ذلك الكفاح المسلح الذي تخوضه المعارضة الكردية في تركيا والمعارك التي يخوضها أكراد العراق ضد بغداد، التي أدت في النهاية إلى تأســـيس حكم ذاتي في كردســـتان العراق. وأحيانًا كانت الصدامات تندلع بينهم وبين قوات حفظ النظام في سوريا، غير أنها لم تتطور أبدًا لتصبح ثورة أو انتفاضة.

لم يكن هناك فقر مدقع في ســـوريا مثلما هو الحال في مصر، إلا أن الفجوة كانت تتسع بقوة بين النخبة الحاكمة وعامة الشعب.

وفي الفترة بين عامي 2006 – 2011 م عانت سوريا من جفاف غير مسبوق أدى إلى فقدان 75 % من المحاصيل و 80 – 85 % من قطعان الحيوانات وهو ما هدَّد مســـتقبل أكثر من مليون مواطن. شهدت سوريا حالة من الهجرة الجماعية من الريف إلى المدن. حيث انتقـــل أكثر من 200 ألف مواطن إلى حلب في عام 2011م. وبعد التدخل الأمريكي في العـــراق هاجر مئات الآلاف من اللاجئين العراقيين إلى ســـوريا.[1] كل هذا كان دافعًا لزعزعة الاستقرار الاجتماعي.

ورغم اســـتمرار النمو الاقتصادي في الســـنوات الأخيرة من العقد الماضي، إلا أن ارتفاع نسبة النمو السنوي للسكان أدى إلى انخفاض نصيب الفرد من الناتج القومي. وبدأ الشباب الســـوري يعاني كثيراً مثلما هو الحال في غيرها من البلدان العربية. حيث ارتفع معدل البطالة

وخاصة بين الشباب وخريجي الجامعات.

وتعرض جيل الشـــباب إلى التهميش السياســـي بشـــكل جزئي. كما أقنعت الحرب في لبنـــان والعراق الكثيرين بحقيقة أن الأمن والاســـتقرار هي نعمة ينبغـــي الحفاظ عليها. وكان اتحاد الطلاب في ســـوريا مؤيدًا للحكومة، غير أن القنوات العربية كان لها دور في التأثير على معنويات الشباب السوري.

والرئيس الأســـد صغير السن نسبيًّا. ففي عام 2011م كان قد بلغ من العمر 45عامًا. وقد قدم نفســـه كزعيم معارض للغرب وإسرائيل ومنفتح في الوقت نفسه على الإصلاحات. ورأى الكثير من الســـوريين أن ســـقوط الرئيس المصري **مبارك** هو دليل على فشـــل أي زعيم موال لأمريكا وحليف لإسرائيل.

وفي نهاية العقد الأول من القرن الحادي والعشـــرين، كانت ســـوريا قد اتخذت الكثير من الإجـــراءات الإصلاحيـــة والديمقراطية. وتم الإفراج عن بعض المعارضين السياســـيين بما فيهم المنتمين إلى "**الإخوان المســـلمين**". وعولت السلطات على دعم العلاقات مع نخبة رجال الأعمال والمثقفين بما فيهم المنتمون إلى السنة.

واصطدمت خطط الإصلاح بمقاومة ومعارضة الحرس القديم من المحافظين الذين خشـــوا من أن تؤدي الإصلاحات على عجل إلى زعزعة استقرار الوضع السياسي، وتقويض نفوذهم والمزايا التي يحصلون عليها.[2]

ورغـــم ذلك تم في عام 2009م تغيير ميثاق حزب البعـــث، وتم إدراج بعض البنود التي تتعلق بتطبيق إصلاحات ديمقراطية وبحقوق الإنســـان والتعددية السياســـية. تم تقليص نفوذ الحزب في المؤسســـات الحكومية[3]. وسمحت السلطات بنشاط واسع للمعارضة التي دعت إلى تطبيق إصلاحات ديمقراطية في إطار نضال سياسي سلمي.

كما قامت الســـلطات باتخاذ بعض الخطوات نحو تطبيق اقتصاد السوق وتقليص سيطرة الدولة على الاقتصاد، وتم افتتاح بنوك خاصة وبورصة دمشق، وإلغاء الدعم على الخبز والأرز، وغيره من المواد الغذائية والمازوت. وقد فتح ذلك الطريق نحو خلق اقتصاد متعاف على الرغم من انخفاض مستوى معيشة المواطنين والذي كان له أثره على الوضع الاجتماعي .

ونجح النظام في الحفاظ على ولاء الجيش وقوى الأمن وليس فقط العلويين بل والمسيحيين

وكثير من السنة. كتب الباحث الأمريكي **ك. فيليبس**: ''... كانت الخلافات بين العلويين والسنة غير ذات أهمية. فرغم عدم رضا السنة عن بعض العلويين وعدم رضا العلويين عن بعض السنة إلا أنه سيكون من الخطأ القول بأن هذه الخلافات كانت شائعة وسائدة بين الطائفتين... لم يكن جميع العلويين يدعمون النظام ولم يكن السنة بأكملهم يدعمون المعارضة ولم يكن السوريون يتحركون بدوافع طائفية''.[4]

وبقيت دعائم السلطة ذات التوجه العلماني القومي راسخة، وتتمثل في أجهزة الأمن والنظام الحزبي البعثي والعلاقات الوطيدة بين الحزب والجهاز الحكومي والتسامح الديني الذي عرفت به سوريا دومًا. ورغم ذلك زاد التوتر في البلاد.

وبدأت الدولة التي ظلت تضمن التسامح الديني والتعايش السلمي بين الطوائف المختلفة تتعرض للتهديد. وعلى الرغم من معارضة المحافظين من قيادات الدولة والحزب إلا أن النظام لم يعدم الوسائل لتطبيق الإصلاحات وبالطرق السلمية. ولكن لم يكن هذا هو هدف معارضيه. كان هدفهم هو عزل هذا النظام الذي لم يعد يرضيهم.

دائرة العنف المعيبة

اندلعت أولى الاحتجاجات ضد الحكومة في سوريا يوم 26 يناير 2011، وكانت بأعداد قليلة، وفي 15 مارس تحولت إلى احتجاجات جماهيرية واسعة في محافظة درعا الواقعة على الطريق بين دمشق والأردن. كانت المطالب تتمثل في تطبيق إصلاحات ديمقراطية وانتخابات تعددية وإلغاء حالة الطوارئ. وقعت صدامات عنيفة بين المتظاهرين والشرطة. وأكدت المعارضة ومصادر الأخبار الخارجية أن الشرطة قد اعتقلت وضربت مراهقين عقابا لهم على مشاركتهم في رسم شعارات ضد الحكومة على الجدران. وأكدت المصادر الحكومية أنه تم اكتشاف مستودعات للسلاح وأن أول قتيل سقط ينتمي لقوات حفظ النظام.[5] ثم سرعان ما ظهر بين فصائل المعارضة أشخاص مسلحون وقناصون قاموا بإطلاق النار على المتظاهرين أنفسهم، ومهما حدث فقد انتشرت الاحتجاجات في عدة مدن، وتدخل الجيش للمشاركة في قمعها.

ويعتقد بعض الباحثين أن الرئيس الأسد تأخر في تطبيق الإصلاحات. ومن السهل أن ننتقد القيادة السورية بعد مرور عدة سنوات. اتسمت الاحتجاجات في سوريا والتي

تلقـــى دعمًا خارجيًّا متواصلاً بأنها رفعت مطالب لا تنتهـــي. فبعد أن تقوم الحكومة بتقديم تنازل تظهر مطالب جديدة. وقد اعتذر الرئيس الســـوري شـــخصيًّا لعائلات الضحايا. وفي نهايـــة مـــارس عزل الرئيس الحكومة التي ظلت في الســـلطة منذ 2003م وقـــام بإلغاء حالة الطوارئ. وفي نهاية مايو تم العفو عن المعتقلين السياسيين. كما بدأ في تغيير محافظي الأقاليم والمحافظات.[6] وحصل حوالي 200 ألف كردي على الجنســـية الســـورية. ولا أعتقد أن هذه الخطوات جاءت متأخرة.

كانـــت البلاد تموج في دائرة قبيحة من الاحتجاجـــات والعنف، ثم احتجاجات جديدة فصدامات مسلحة متزايدة بين المؤيدين والمعارضين للنظام.

وقام ممثلو ''**شباب الإنترنت**'' المقيمون في لبنان والأردن ولندن بلعب دور قذر وبالدعوة لحرب أهلية. وحينما اندلعت الحرب أصبحوا ينفثون في الدخان لتشتعل النار أكثر.

ونالت المعارضة دعمًا وتأييدًا من الدول الغربية ودول الخليج وتركيا. وفي صيف 2011م كان العالم مشـــغول بأمور أخرى غير ســـوريا ورغم ذلك كانت تصرفات السفراء الغربيين في دمشـــق استفزازية، حيث تواصلوا بشكل مباشـــر مع المعارضة ودفعوا إلى مواصلة الاحتجاج ضد النظام.[7]

كانـــت الاحتجاجات في ســـوريا تســـير وفق منطقهـــا وديناميكيتهـــا الخاصة. لم ينس الإسلاميون في سوريا أنه في عام 1982 وردًّا على العمليات الإرهابية التي قام بها ''**الإخوان المســـلمون**'' قام **حافظ الأســـد** بمذبحة ذهب فيها الآلاف من الضحايا من سكان مدينة حماه. وكان لأبناء هذه الثورة حســـاباتهم الخاصة ضد العلويين وعائلة الأســـد والمقربين منه. وهب هؤلاء مباشـــرة لحمل السلاح الذي حصلوا عليه بدعم خارجي. كان من الواضح أن السيناريو السلمي في مصر وتونس لن يتكرر في سوريا.

ونورد هنا رأي شـــخص من خارج دائرة السياســـة، وهو ممثل بطريرك كنيســـة موســـكو وعموم روســـيا **ألكسندر يليسوف** الذي ذكر أن السبب في الصراع في سوريا في البداية كان المشاكل الداخلية التي استغلها الخارج لإشعال الأزمة في البلاد. '' تسبب الركود السياسي إلى ظهور العديد من السلبيات في المجتمع ومنها الفساد وتسلط المسئولين والموظفين على الجهاز الحكومـــي بالكامل. وأعتقد أن هذا تحديدًا ما خلق أرضية مناســـبة لاندلاع القلاقل. ورغم ذلك كان الخارج هو من قام بإشعال الفتيل. واكتسبت أعمال الفوضى المسلحة زخمًا وانتشارًا

واسعًا بعد انتهاء الحملة العسكرية على ليبيا''.[8]

لم يكــن هناك زعماء أو هياكل تنظيميــة للمعارضة في بداية الأحداث. ولكن ''الخارج تكفل بإشــعال فتيل الصراع''. وقبيل اندلا ع الاحتجاجات تعرض **الأسد** لحملة إعلامية لا هــوادة فيها قامت بها جميع القنــوات والصحف العربية تقريبًا بما فيها ''**الجزيرة**'' و"**العربية**" وقنوات ووســائل إعلام ومواقع إخبارية غربية. جميعهم قاموا بدفع البلاد إلى الحرب الأهلية. ومع بداية الأحداث أخذت هذه الحملة تتصاعد في وسائل الإعلام الإلكترونية والمطبوعة في الغرب والخليج وعلى مواقع التواصل الاجتماعي.

وشهدت سوريا مظاهرات حاشدة مؤيدة للحكومة وكثيراً ما كانت تنتهي بمصادمات مع المعارضة.

أصبحت الصدامات أكثر شراسة وتزايدت أعداد الضحايا.

وفي يناير 2012م كانت المعارك تدور في ضواحي دمشــق ثم انتقلت إلى مدينة الرســتن وحمص.

وليس من أهداف هذا الكتاب وضع وصف تفصيلي للحرب الأهلية التي اســتمرت ستة أعــوام حتى اللحظة التي سينشــر فيها هذا الكتاب. حيث ســنتناول فقط بعض الأحداث المحورية لإلقاء الضوء على موقف روسيا من الأحداث في سوريا.

وفي يوليو 2011 أعلن عدد من الفارين من الجيش الســوري والذين ينتمي أغلبهم إلى ''**الإخوان المســلمين**'' عن تأسيس ما يسمى ''**الجيش الســوري الحر**'' وانضم إليهم عدد من المسلحين. لم يكن للجيش الحر قيادة مشتركة على الرغم من سعى وسائل الإعلام الغربيــة إلى القول بعكس ذلك. وتمركز هذا الجيش في البداية في محافظة هاتاي بتركيا بالقرب من الحدود مع سوريا. ورفضت الفصائل المسلحة للمعارضة في الداخل تنفيذ أوامر تأتيهم من الخارج وأخذوا يتصرفون بشــكل مستقل. وحافظ الجيش بشكل عام على ولائه للنظام على الرغم من انتماء أغلب الجنود للطائفة السنية وليس للطائفة العلوية.

وقد خففت حالة التشتت التي تعاني منها المعارضة من الضغط على النظام حيث لم يكن لها قيادة موحدة وعانت من التشــرذم والخلافات. قام الثوار بتشكيل حوالي 1000 مجموعة أو تشــكيل كانت تتحد معًا حول أحد القادة المحليين أو حول فكرة وإيديولوجية مشــتركة.

بدت الفصائل المعارضة للنظام في حالة تشـــتت بسبب الاختلافات والتناقضات الشخصية والأيديولوجيـــة فيمـــا بينها وخاصة حول دور الإســـلام والجهاد وإمكانيـــة القبول بالتدخل الخارجـــي. وفي 2013م ذكـــر **مركز كارتـــر** أن هناك 1015 مجموعة مســـلحة و3250 تشكيل مسلح للمعارضة السورية.[9] ويشير **ك. فيلبس** أنه ومع نهاية عام 2015م كان هناك أكثر من 30 ألف جهادي في سوريا.[10]

وفي بداية شهر أكتوبر 2011م وبمبادرة من الدوحة وباريس قام عدة مئات من المهاجرين بتأســـيس المجلس الوطني السوري في إسطنبول والذي يحمل طابعًا علمانيًّا من حيث الشكل غير أن ''**الإخوان المسلمون**'' كان لهم نفوذ كبير في داخله.

وقد بالغت أنقرة في تأثير **الإخوان** في سوريا وأصبحت تقدم لهم الدعم المتواصل. وقابلت المعارضة المســـلحة في الداخل الســـوري هذا المجلس فيما انشغل أعضاؤه بالتنقل بين الفنادق الفخمـــة وبين العواصم والتحدث على اعتبارهم الحكومة القادمة في ســـوريا بهدف الحصول على الدعم المالي. دعا هذا المجلس إلى تكرار السيناريو الليبي في سوريا أي التدخل العسكري الأجنـــبي بهدف خلع النظام البعثي. وحتى محاولاتهم التحدث كممثل للجيش الســـوري الحر باءت بالفشل.

ودوليًّا قام أعداء نظام **الأسد** بتأسيس ''**مجموعة أصدقاء سوريا**''. وجاءت المبادرة من الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا بدعم من الأمانة العامة لجامعة الدول العربية حيث النفوذ القوي لدولة قطر. وبعد تأسيس المجموعة في تونس في فبراير 2012م عقدت اجتماعات في مختلـــف عواصم العالم لتقديم أقصى قدر ممكن من الدعم للمعارضة. وتضاعف عدد أعضاء المجموعة ليصل إلى 11 دولة معارضة لنظام الأســـد. غير أن اجتماع مايو 2014م في لندن شـــهد حضورا قليلاً ضم 11 دولة فقط وهي الأكثر تشـــددًا ضد **الأســـد** (ومنها الولايات المتحدة الأمريكية وتركيا وقطر). وناقش أصدقاء سوريا علانية قضية إمداد المعارضة بالسلاح رغـــم أن هـــذه الإمدادات كانت تتم منذ زمن. وكانت المشـــكلة تكمـــن في تحديد أي من التنظيمات المسلحة في الداخل يختارون لإمدادها بالسلاح؟

وسنعود لاحقًا بالتفصيل للحديث عن مجموعة ''**أصدقاء سوريا**''.

كانت هذه المجموعة تنشـــط خارج إطار الأمم المتحدة وأحيانًا كانت تعمل على مراقبة الاتفاقيات الموقعة بين روسيا وأمريكا.

وفي اللقاء الذي جمع ''**مجموعة أصدقاء سوريا**'' في إسطنبول في 1 أبريل 2012م تم الاعتراف بالمجلس الوطني السوري كحكومة شرعية لجميع السوريين ومظلة للمعارضة السورية. وبالطبع كان هذا المجلس مخولاً بقيادة النضال ضد بشار الأسد.

ولكن سرعان ما انخفضت ثقة الغرب بالمجلس نظرًا لضعف تأثيره على الأحداث في سوريا.

وفي 11 نوفمبر 2012م وبمبادرة من فرنسا وقطر تم تأسيس ما سمي بالتحالف الوطني للمعارضة السورية والقوى الثورية. وكان من بين المبادئ الأساسية لهذا التحالف رفض الحوار مع السلطة وخلع **بشار الأسد**[11] وكامل النظام السياسي في سوريا. وانضم إليه المجلس الوطني السوري حيث حصل على 22 مقعدًا من أصل 60، ولكنه سرعان ما انسحب لاحقًا من التحالف في يناير 2014م عندما تم تجاهله في المباحثات مع الحكومة السورية.

وأعلن هذا الكيان الجديد في حفل التأسيس عن نبذه للتطرف، ووقف أي خرق لحقوق الإنسان والجرائم التي تقوم بها المعارضة المسلحة.

وشهد التحالف صراعًا داخليًّا على السلطة. في البداية تم تعيين إمام المسجد الأموي السابق في دمشق **معاذ الخطيب** رئيسًا له. الا أنه صرح بقبوله التفاوض مع النظام وعندها تمت إقالته فورًا. وبعد فترة تم تعيين **أحمد الجربا** رئيسًا للتحالف والذي يقيم في السعودية ثم جاء بعده رجل أعمال سعودي ذو أصول سورية وهو **هادي البحرة**. وشهد التحالف تناقضات داخلية بين جبهات مختلفة.[12] وكان التحالف يلقى دعمًا من عدد من الدول وأهمها السعودية.

وفجأة فوجئت الدول الغربية بتوقف العديد من فصائل المعارضة السورية عن الاعتراف بالتحالف، وفي نهاية سبتمبر 2013م رفض 13 فصيلاً كبيرًا في المعارضة التعامل مع قيادة التحالف الوطني وانسحبوا من الجيش السوري الحر. وقام هؤلاء بتشكيل تحالف عسكري خاص للفصائل الجهادية الراديكالية يحمل اسم ''**التحالف الإسلامي**''.[13] ونال الكثيرون منهم دعمًا من الولايات المتحدة الأمريكية.[14]

وحصل الثوار على دعم مالي متزايد. ففي ديسمبر 2011م أكد الخبير الأسبق في مكافحة الإرهاب والضابط في المخابرات الأمريكية **فيليب جيرالدي** أن ''طائرات الناتو العسكرية تهبط في القواعد التركية بالقرب من الحدود السورية وتحمل السلاح الذي تم نهبه

من ترسانة **معمر القذافي**. كما تحمل المتطوعين للقتال في سوريا من أنصار المجلس الانتقالي الليبي. ويقوم المدربون في القوات الخاصة البريطانية والفرنسية بمساعدة الثوار وتقوم المخابرات الأمريكيـــة وفرق العمليات الخاصة الأمريكية بتوريد أجهزة الاتصالات والمعلومات لمســـاعدة الثوار في عملهم''. وأشـــار أيضًا إلى أن محللين من المخابرات الأمريكية يشـــككون في مقتل مدنيين على يد القوات الحكومية كون هذه المعلومات تعود إلى مصادر تابعة للثوار ولا يمكن التأكـــد من صحتهـــا.[15] وفي 2012م وردت أخبار عن قيام الولايـــات المتحدة الأمريكية بعمليات سرية لمساعدة المجموعات المسلحة المعارضة لحكومة الأسد.[16]

وأدى البرنامـــج الأمريكي ''**منـــح التدريب والمؤن**'' إلى قيام المقاتلين ببيع الأســـلحة والانضمام إلى داعش أو ''**جبهة النصرة**''.[17]

وقـــد تبنت جامعة الـــدول العربية بقيادة قطر موقفًا معاديًا لحكومة دمشـــق الرسمية، وفي نوفمبر 2011م تم فرض عقوبات اقتصادية ضد ســـوريا وحظر السماح للمسئولين السوريين بالدخول إلى البلدان الأعضاء في الجامعة. [18] وفي الوقت نفســـه قام الاتحاد الأوروبي بفرض عقوبات إضافية على دمشق.

وفي الســـادس من مارس 2013م أعطـــت الجامعة العربية الضـــوء الأخضر لأعضائها بتســـليح المعارضة المسلحة في سوريا. وفي 26 مارس وفي قمة الدوحة اعترفت الجامعة العربية بالتحالف الوطني بوصفه ممثلاً شرعيًّا للشعب السوري.[19] غير أنها في الفترة الأولى من الأزمة حاولت إظهار الالتزام ''**بالموضوعية**''.

ولتخفيف حدة الصراع في ســـوريا وفتح الطريق أمام المفاوضات قامت الجامعة بتشـــكيل بعثة مراقبة برئاســـة الجنرال الســـوداني **محمد الدابي**. وبدأت البعثة في عملها على أســـاس البروتوكول الموقَّع بين الجامعة العربية ودمشـــق في نوفمبر 2011م. وخلال فترة قصيرة قامت البعثة بإعداد تقرير يصف بشـــكل موضوعي الوضع في ســـوريا. حيث تضمن التقرير حقائق رفضتها الحكومة الســـورية. كما لم يعجب هذا التقرير "**مجموعة أصدقاء ســـوريا**'' حيث يتحدث عن وجود مناصرين للحكومة السورية، كما أن لديها أعداء. كما أشار إلى أن هناك تشـــويه للحقائق من قِبل وســـائل الإعلام الدولية وذكر الجرائم التي تقوم بها المعارضة السورية بما فيها قـــوات الجيش الحر الذي يقدمه الغرب بوصفه ''مناضلاً من أجل الديمقراطية'' ضد ''نظام غاشم''.

ولهذا السبب تحديدًا، رفض أعضاء مجلس الأمن مشروع القرار الروسي ببحث والموافقة على تقرير بعثة الجامعة العربية.

واقترحت الدول الغربية على الجنرال **محمد الدابي** التقدم باستقالته كي يضعوا بدلاً منه شخصًا مناسبًا أكثر لهم. ويبدو أنهم حاولوا شراء ذمته. ولم ينجحوا في ذلك. وفي هذه اللحظة تحديدًا حولت السودان وجهتها نحو الغرب حيث أعطت ظهرها لإيران أملاً في الحصول على دعم كبير، واستدعى الرئيس السوداني **البشير** الجنرال **محمد الدابي** إلى الخرطوم.

وفي بداية عام 2012م تم تجميد عمل بعثة الجامعة العربية. وهكذا باءت بالفشل أول محاولة لتخفيف حدة الصراع ولخلق آلية لمراقبة الوضع في سوريا.[20]

لم تكن المعارضة المسلحة أو داعموها في حاجة إلى مفاوضات سلمية. فمنذ البداية راهنت المعارضة على التدخل العسكري الخارجي وفقًا للسيناريو الليبي، وراهن الداعمون على سرعة انهيار النظام.

غير أن محاولات إيجاد وسيط محايد قد تواصلت. وفي 23 فبراير 2012م قام **بان جي مون** بتعيين الأمين العام السابق للأمم المتحدة **كوفي عنان** مبعوثًا خاصًا للأمم المتحدة والجامعة العربية في سوريا، وهو الأمر الذي حظي بتأييد من روسيا. كان الهدف هو التوصل إلى تسوية سياسية ودبلوماسية للصراع.

وفي 21 إبريل 2012م، وافق مجلس الأمن على قرار بإرسال 300 مراقب من الأمم المتحدة إلى سوريا.

واقترح **كوفي عنان** خطة سلام من ست نقاط أهمها وقف إطلاق النار وانطلاق الحوار السياسي وتحقيق الاستقرار في الوضع في البلاد تحت إشراف الأمم المتحدة. وتم في 12 إبريل 2012م الإعلان عن هدنة غير أنها ظلت هشة. وقامت الحكومة السورية بإجراء انتخابات على الأراضي الواقعة تحت سيطرتها. وشهدت الانتخابات البرلمانية مشاركة العديد من الأحزاب وحقق تحالفًا بقيادة حزب البعث الفوز فيها.

وبدأت مرحلة الانسحاب التدريجي لقوات الحكومية ومعداتها الثقيلة من المناطق السكنية. وبعد الإعلان عن الهدنة وصل ممثلو الأمم المتحدة إلى سوريا بقيادة الجنرال **ر.مود** الذي حاول تبني موقف موضوعي من الأزمة. وتم التوصل إلى هدنة في بعض المناطق. غير أن كلا

الطرفين كان سببًا في تجدد الاشتباكات بين حين وآخر.[21]

وصرحت الدبلوماسية والباحثة الروسية **م. خودينسكايا جولينيشيفا** أن ''الاتصالات المكثفة مع المعارضة السورية شهدت دعوة الدبلوماسيين الروس لمعارضي **الأسد** بالالتزام بخطة **عنان** غير أن المعارضة كانت ترد بالقول إن هناك لاعبين آخرين في الخارج يقولون لهم كلامًا آخر: ''**لا تضعوا سلاحكم**'' '' **الخارج سيساعدكم**''.[22]

وأضاف **فيليبس**: ''إن المحاولات المختلفة لوقف إطلاق النار في أثناء تنفيذ خطة الجامعة العربية و**كوفي عنان** قد باءت بالفشل جزئيًّا نظرًا لعدم قيام اللاعبين الخارجيين بالضغط بما يكفي على حلفائهم في داخل سوريا للالتزام بوقف إطلاق النار، بل على العكس من ذلك قاموا بتحريضهم على خرق هذا الاتفاق''[23].

ووردت تقارير البعثة حول خرق الهدنة، بالإضافة إلى الجرائم العديدة التي قام بها المقاتلون. وقد أعاق ذلك تصوير الواقع السوري بشكل موضوعي وبمساعدة وسائل الإعلام.

وبدأ المقاتلون في مهاجمة موظفي الأمم المتحدة وتفجير سياراتهم. وأصبح عملهم مستحيلاً في هذه الأجواء. فقررت الولايات المتحدة وحلفاؤها تجميد مهمة بعثة الأمم المتحدة. وفي 29 يونيو 2012م مدَّد مجلس الأمن عمل البعثة لمدة شهر. وفي الثاني من أغسطس 2012م استقال **كوفي عنان** من مهمته. وصرح أنه لا حل عسكري للأزمة السورية وأن الحل للخروج من المأزق في يد كل من الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا. وتم نقل منصب المبعوث الخاص للأمم المتحدة في سوريا إلى الدبلوماسي الجزائري **الأخضر الإبراهيمي** والذي شغل المنصب في الفترة بين الأول من سبتمبر 2012 وحتى 31 مايو 2014م.

وفي منتصف 2012م رأت الدول الغربية العظمى أن الحل العسكري يمكن أن يؤدي إلى سقوط سريع **للأسد**.

وفي 22 يونيو 2012م أسقطت أنظمة الدفاع الجوي السورية مقاتلة تركية من طراز F-4 فوق الأجواء السورية. وحتى لا يمنح تركيا مبررًا للتدخل العسكري في الحرب اعتذر الرئيس **بشار الأسد** علانية عن الحادثة. وأعلن حلف الناتو تضامنه مع تركيا ومنحها عدة بطاريات دفاع جوي محمولة من طراز ''**باتريوت**''. ثم قامت الولايات المتحدة بإهداء نفس المنظومة إلى الأردن.

وفي صيف 2012م شـــدد الثوار مـــن هجماتهم. ودارت المعارك في الأحياء الســـكنية للعاصمـــة.[24] وفي 18 يوليو 2012م وقع حادث إرهابي أودى بحياة وزير الدفاع الســـوري **دأود راجح** وعدد من كبار المســـئولين العسكريين بما فيهم رئيس المخابرات السورية.[25] وكان ذلك مؤشرًا على درجة وخطورة الصراع الدائر في العاصمة نفسها. وتمكنت القوات الحكومية في يوليو 2012م من إبعاد المقاتلين عن وسط العاصمة إلا أن المعارك ظلت تدور في أطراف المدينة.

وتحول الاهتمام في تلك الفترة إلى حلب حيث حققت المعارضة نجاحات مؤكدة ولم تكن القوات الحكومية تســـيطر ســـوى على جزء من المدينة. نجح الثوار في احتلال نقاط التفتيش على الحدود السورية التركية وهو ما سمح بتلقي المساعدات من تركيا دون عراقيل.

وفي نهايـــة أكتوبـــر 2012م قام المبعوث الجديـــد للأمم المتحدة إلى ســـوريا **الأخضر الإبراهيمي** بتنظيم هدنة بين الطرفين في فترة عيد الأضحى لكنها سرعان ما انهارت.

وفي الشـــهور الأولى للصراع، وحينما كانت القوات الحكومية لا زالت متمركزة في المناطق الكردية دارت صدامات بينها وبين الثوار الأكراد. كما وقعت بعض المصادمات لاحقًا وإن كانـــت نادرة. وتطور الوضع إلى أن أصبحت الصدامـــات الحقيقية بين الأكراد والمجموعات الإسلامية المعارضة للنظام. وبعد انسحاب القوات الحكومية من المناطق الكردية أصبح الثوار المحليون في واقع الأمر حلفاء لدمشق خاصة عندما بدأ نشاط فصائل الدفاع الشعبي (حوالي 15 ألـــف مقاتل) ، الجناح العســـكري لحزب الاتحاد الديمقراطـــي[26] الذي أصبح صاحب السيطرة الحقيقية على المناطق الكردية. وقد جرى تنسيق وتعاون بين هذا الحزب وبين حزب العمَّال الكردســـتاني في تركيا وهو ما تســـبب في شـــن هجوم تركي حاد على هذا الفصيل السوري. خاضت فصائل الدفاع الشعبي الكردية معارك ناجحة ضد الجهاديين. كما حصل الأكراد العراقيون على دعم عسكري أمريكي. وأصبحت العلاقات متشابكة ومتناقضة داخل مربع الولايات المتحدة الأمريكية – تركيا – الأكراد – الجهاديون.

وسرعان ما ظهرت العديد من الفصائل المسلحة الأخرى تقاتل مع الجيش السوري الحر، وقـــد تميزت بينها "**جبهة النصرة**" بتنامـــي قواتها. وتحرجت الدول الغربية من دعمها لكونها أعلنت نفســـها رسميًّا فرعًا للقاعدة. وأخذ هذا التنظيم يوســـع نفوذه في شـــرق البلاد وأجزاء كبيرة من محافظتي إدلب وحلب.

ومنذ نوفمبر 2012م وحتى إبريل 2013م تحققت نجاحات ملحوظة للمعارضة المسلحة في مختلف المناطق. ودارت معارك في دمشق نفسها. واستولى المقاتلون على الأحياء السكنية ومخيم اليرموك للاجئين الفلسطينيين، وتم عزل حلب عن العاصمة. واستخدمت فصائل الجيش السوري الحر الأراضي التركية لاختراق محافظة اللاذقية الساحلية.

وعندما أصبح الطريق بين لبنان ودمشق مهددًا وخوفًا من فقدان حليفها وراعيها وهو النظام السوري قامت فصائل حزب الله اللبناني بدعم من العراق بالتدخل عسكريًّا في الصراع في فبراير 2013م. ودارت معارك بينها وبين فصائل الجيش الحر، واستطاعت فصائل حزب الله السيطرة على مدينة القصير وهو ما ضمن سيطرة القوات الحكومية على جزء كبير من الحدود السورية اللبنانية.

ولكن في الشرق لم تكن الكفة في صالح الحكومة. فقد استولت فصائل المعارضة على مدينة الرقة وأغلب الحقول والصناعات النفطية.

وفي إبريل – أغسطس 2013م تحققت بعض النجاحات للقوات الحكومية بما في ذلك بمدينة إدلب. حيث تمت استعادة بعض الأحياء في العاصمة من سيطرة المقاتلين. كما اشتبك الأكراد مع الإسلاميين في شمال شرق سوريا ومدينة حلب.

وفي الثامن من سبتمبر قام إسلاميو "**النصرة**" بالاستيلاء على المدينة المسيحية معلولة التي تعد المكان الوحيد الذي ما زال سكانه يتحدثون اللغة الآرامية، وهي اللغة التي تحدث بها المسيح. كما احتجز هؤلاء الراهبات رهائن لديهم وقاموا بأعمال سطو ونهب للأديرة والكنائس. ثم ظهر في المدينة مقاتلون ينتمون إلى الجيش السوري الحر وظلت المدينة عدة شهور تحت سيطرتهم إلى أن تمت استعادتها ثانية من قبل القوات الحكومية.

وتأرجح الوضع بين هزائم وانتصارات الجانبين حتى الشهور الأخيرة في عام 2013م.

وحوش صغيرة وأخرى كبيرة

وفي أثناء المعارك الدائرة في مدينة القصير قام أحد قادة المقاتلين بارتكاب جريمة أكل لحوم البشر أمام عدسات الكاميرات حيث التهم قلب وكبد جندي قتيل من القوات الحكومية. كما دعا الثوار إلى قتل العلويين دون رحمة والتهام قلوبهم. وقد انتشرت مشاهد الكاميرات تلك في جميع وسائل الإعلام بما فيها القنوات الغربية المعارضة لنظام **بشار الأسد**.

ولكن هـــذه الجرائم تتوارى للخلـــف إذا ما قورنت بما قامت بها الجماعات الإســـلامية المتطرفة في ســـوريا. نشطت جماعة "**الإخوان المسلمين**" داخل قوات الجيش السوري الحر وكثـــرت حالات انتقالهم منه إلى فصائل التنظيمات المتطرفة. وضمت فصائل المعارضة المئات مـــن المجموعات الجهادية التي كانت تتنقل بين التنظيمات وكانت التنظيمات التي تقدم المال تجذب مقاتلين أكثر.

وقد تأسست "**جبهة النصرة**" في يناير 2012م. وضمت متطوعين ومرتزقة من العراق وباكستان ولبنان والسعودية وتركيا وفرنسا وبريطانيا وروسيا. وسيطرت الجبهة على جزء كبير من مناطق إدلب وكذا في شـــرق سوريا وأجزاء من حلب وحمص وبعض الأحياء السكنية في العاصمة والمناطق السكنية في الغوطة بالقرب من دمشق. كما سيطرت على الجزء السوري في مرتفعات الجولان، حيث احتجزت متطوعي الأمم المتحدة رهائن ثم أطلقت سراحهم لاحقًا بعد أن صادرت أسلحتهم".[27]

وقـــد أعلن زعيم "**القاعدة**" **أيمن الظواهري** في نوفمبر 2013م أن "**جبهة النصرة**" هي الممثل الشرعي الوحيد للقاعدة في سوريا.[28] وقد تم إدراجها منظمة إرهابية من قبل الأمم المتحدة وروسيا وأمريكا وعدد من الدول.

وتمثلت قوة الجبهة في الانتحاريين الذين قاموا بالعشـــرات من العمليات الإرهابية. وأحيانًا كانت تنســـق العمليات مع الجيش الســـوري الحر في حلب، وفي أحيان أخرى كانت المعارك تدور بين الطرفين. وضمت الجبهة أكثر من ستة آلاف مقاتل تقريبًا.

وفي عام 2015م قامت "**جبهة النصرة**" وحلفاؤها بالسيطرة على كامل محافظة إدلب بما فيها عاصمة الإقليم. كما أقســـم بالولاء للجبهة مقاتلون من روســـيا وبلدان آسيا المركزية وانضم إليها العديد من مقاتلي الجيش الســـوري الحر. ولم تضعف الضربات الجوية الأمريكية على مواقع الجبهة من قدراتها بل جلبت لها المزيد من الشعبية والتأييد بين الإسلاميين.

كما ضمت فصائل المعارضة السورية المسلحة تنظيمًا آخر لا يقل دموية وتطرفاً ألا وهو تنظيم "**الدولة الإســـلامية في العراق ولبنان**". وقد تأســـس التنظيم في العراق فيما سمي بالمثلث الســـني، وحيث نشطت المعارضة ضد الحكومة الشيعية في بغداد. ونشير هنا إلى أنه في عام 2006م قام المتطرفون الذين خرجوا من تنظيم "**القاعدة**" بتأســـيس تنظيم جديد يحمل اسم "**تنظيم الدولة الإسلامية في العراق**". وبعد مقتل مؤسسيه ترأس التنظيم داعية

إســلامي أطلق على نفســه **أبو بكر البغدادي.**[29] وفي 2013م انخــرط التنظيم في الحرب الأهلية الســورية وفي إبريل من العام نفســه تم تغيير اسم التنظيم إلى ''**الدولة الإسلامية في العراق والشام**'' (**داعش**).

ويرى الشــيخ **رافيل عيد الدين** بضرورة اســتخدام الاختصار العربي للتنظيم ''**داعش**'' وعدم اســتخدام تعبير'' **الدولة الإســلامية**'' لكونه غير صائب من الوجهة السياســية.[30] وأصبح اختصار ''**داعش**'' شــائعًا في الأدبيات ووســائل الإعلام الغربية. كما يستخدم في روسيا وكازاخستان.

وتفيد بعض المعلومات بأن ''**جبهة النصرة**'' هي صنيعة تنظيم داعش، حيث كان الهدف أن تصبح الجبهة فرعًا للتنظيم في سوريا. غير أن خلافات ظهرت وأدت إلى تفرق التنظيمين. حيث اشــتعل التنافس بين القادة والســعي للحصول على مصادر التمويل والأسلحة. كما كان لكل من التنظيمين بعض الأهداف الخاصة: حيث أعلنت داعش عن ســعيها لتأسيس خلافة عالمية ولــو على أراضي الإمبراطورية العثمانية. أما ''**جبهة النصرة**'' فكانت أهدافها تقتصر في البداية على السيطرة على الأراضي السورية. وأدت الخلافات إلى صدامات مسلحة في فبرايــر 2014م أودت بحياة أكثر من 3300 مقاتل.[31] وأعلنت ''**النصرة**'' عن ولائها وبيعتها لتنظيم ''القاعدة'' وقطعت كل علاقاتها **بداعش**.

وفي 2014م حققــت **داعش** نجاحات كبيرة في العــراق. ففي 10 يونيو تمكن التنظيم من الســيطرة على الموصل ثاني أكبر المدن العراقية. وفر الجيش العراقي وترك ســلاحه خلفه. واستولى المسلحون على السيولة النقدية الموجودة في البنك المركزي العراقي، وبلغ حجم الأموال المنهوبة من 500 – 1000 مليون دولار.[32] ثم سيطر التنظيم على مدن الرمادي والفلوجة، وأصبح على مشارف بغداد. وكما وردني من مصادر عراقية كانت واشنطن تضغط على بغداد وترفض إمدادها بالســلاح وتصر على استقالة رئيس الوزراء **نور المالكي** المرتبط بإيران أولاً. وأعمى هذا الهدف السياســي قصير المدى أعين السياســيين الأمريكيين عن الخطر الداهم. ولعبت الصادرات الروســية العاجلة من السلاح للعراق دورًا مهمًّا في مساعدة الجيش العراقي في الدفاع عن بغداد. وفي 29 يونيو 2014م وصل أبو بكر البغدادي إلى الموصل وأعلن عن تأسيس ''**الخلافة الإسلامية**'' وسمى نفسه ''**الخليفة**''.[33]

ونشـــطت الهجمات التي تقوم بها قوات داعش في ســـوريا. وتمكنت من الســـيطرة على المناطق الشـــرقية للبلاد ثم الرقة، حيث جعلوا منها عاصمة لهم في ســـوريا. ثم اســـتولوا على تدمر وأجزاء من دمشـــق وحلب ومحافظة إدلب. كما حارب مقاتلو **داعش** داخل الأراضي اللبنانية. وفي يناير 2014م اندلعت المعارك بينهم وبين "**الجيش السوري الحر**" في إدلب وحلب.

وبعد إعلانها تنظيم داعش منظمة إرهابية قامت الولايات المتحدة الأمريكية في ســـبتمبر 2014 بتشكيل تحالف دولي قام بتوجيه ضربات جوية لمواقع التنظيم في العراق ثم في سوريا بعـــد الحصول على موافقة الحكومة الســـورية في دمشـــق. غير أن الضربـــات لم تأت بنتائج ملحوظة فقامت واشـــنطن بتقديم دعم بالسلاح إلى فصائل الجيش السوري الحر. كما أبدى الأكراد في العراق وســـوريا مقاومة شديدة ضد داعش وحصلوا هم أيضًا على دعم أمريكي. وفي نهاية 2014م دارت معارك شديدة بين داعش والمتمردين الأكراد دفاعًا عن مدينة كوبان ذات الأغلبية الكردية.

وبلغ إجمالي المســـاحة التي تســـيطر عليها **داعش** في ســـوريا والعراق حوالي 40 – 50 ألف كيلومتر مربع بنهاية عام 2014م يقطنها حوالي 8 ملايين نســـمه.[34] وفي 11 ديسمبر 2015م أعلن وزير الدفاع الروســـي **ســـيرجي شـــايجو** أن **داعش** قد استولت على حوالي 70 % من الأراضي الســـورية معظمها في المناطق الصحراوية وأن عدد المقاتلين في التنظيم قد بلغ حوالي 60 ألف مقاتل.[35]

وضعت **داعش** نصب أعينها تحقيق الهدف الأسمى المتمثل في تأسيس الخلافة على أراضي الإمبراطوريـــة العثمانية التاريخية.[36] ومن بـــين الأهداف أيضًا القضاء على حركة حماس وعلى إسرائيل وزعزعة استقرار آسيا المركزية.[37] وقد انضم إلى التنظيم بعض قدامى الضباط البعثيين في فترة حكم **صدام حسين** الذين فقدوا أي مورد رزق.[38]

وفي ســـبتمبر 2014م أعلنـــت المخابـــرات الأمريكية أن عدد المقاتلـــين في **داعش** بلغ 20 – 31.5 ألف شـــخص.[39] وأعلن مدير جهاز الأمن الفيدرالي الروســـي في ســـبتمبر 2014م أن العـــدد قد وصـــل إلى 30–50 ألفـــا.[40] ووفقًا لمعلومات أجهـــزة المخابرات الأمريكيـــة بلغ عدد الأجانب في صفوف **داعش** حـــوالي 16 ألف مقاتل.[41] وضم التنظيم مقاتلين ينتمون إلى 80 دولة بما فيها تونس وفرنســـا والسعودية والولايات المتحدة الأمريكية

وألمانيا وروسيا وآسيا المركزية والصين والمغرب وكندا. وحسب البيانات التي نشرت على موقع الخارجية الروسية في نوفمبر 2015م ضم التنظيم أكثر من 25 ألف مقاتل أجنبي.[42] فيما يبلغ الرقم 30 ألفا حسب المصادر الأمريكية.[43]

وهناك اختلاف حول تقدير ميزانية التنظيم إلا أن المصدر الأساسي للدخل كان عبر تهريب النفط من الآبار التي سيطر عليها التنظيم في سوريا والعراق إلى تركيا. وقدرت وزارة المالية الأمريكية حجم العوائد بأكثر من 40 مليون دولار شهريًّا.[44] كما استولى التنظيم على أموال البنوك التي بلغت وفق بعض التقديرات من نصف إلى مليار دولار. وهناك مصادر أخرى للتمويل تتمثل في النهب وفدية تحرير الرهائن وأموال داعمين خارجيين والاتجار بالمخدرات. ولم تكن المساعدات الخارجية مكونًا أساسيًّا في التمويل.

وتحول الآلاف من النساء والأطفال من الطائفة اليزيدية إلى عبيد تباع وتشترى. حتى إن هناك كتابًا أصدره التنظيم حول قواعد التعامل مع العبيد.

كما قام التنظيم بتأسيس جهاز ضخم للدعاية ونقل الأخبار بلغات عديدة وتجنيد الأنصار عبر الإنترنت وحتى إنتاج الأفلام السينمائية.

وفي مارس 2015م صدر تقرير الأمم المتحدة[45] الذي ذكر ''أن تنظيم **داعش** لم يرحم أي طائفة في العراق. وأن التنظيم قد مارس العنف ضد اليزيديين والمسيحيين والتركمان والأكراد والشيعة وممثلي الطوائف الأخرى بما فيها السنة''[46] كما جاء في التقرير ''أن أعمال القتل التي مورست في حق اليزيديين يمكن أن تندرج تحت جرائم الإبادة الجماعية''.[47] وفي صيف 2015م قامت عناصر **داعش** بقتل 500 رجل من الطائفة اليزيدية واحتجزوا 300 امرأة عبيدًا لديهم. تم ارتكاب عمليات إعدام جماعي وتطهير عرقي وتم استغلال الصبية في المعارك وإجبار الناس على اعتناق الإسلام. كما دفع التنظيم النساء والفتيات من الطوائف الأخرى إلى ممارسة الدعارة. وكانت هناك أسواق رسمية لعبيد. وقام المقاتلون بتدمير الآثار التاريخية والمزارات الدينية، وهاجموا مشاريع البنية الأساسية. وذكر مؤلفو التقرير أن الأفعال التي يقوم بها التنظيم تندرج ضمن الجرائم ضد الإنسانية والإبادة الجماعية وجرائم الحرب''[48] ورغم أن التقرير كان عن العراق إلا أنه تناول في أجزاء منه الوضع السوري.

وقام عناصر التنظيم بارتكاب عمليات إرهابية ليس فقط في سوريا والعراق بل وفي تركيا وفرنسا وتونس والولايات المتحدة الأمريكية وإندونيسيا وبنجلاديش وألمانيا وروسيا والكويت.

وتعمد التنظيم تقديم إخراج مسرحي لعمليات تصفية مئات الأسرى، ومن ثم نشره على صفحات الإنترنت. قاموا بقتل النساء ومنهم الحوامل. وفي مدينة الموصل قاموا بإلقاء شخصين شاذين جنسيًّا من أعلى سطح بناية.[49] كما قاموا بإعدام مراهقين لأنهم شاهدوا مباراة لكرة القدم في التلفاز. وقام التنظيم بقطع رقبة صحفيين أجانب وموظفين في منظمات خيرية، ونشروا عمليات الإعدام على التلفاز. وفي يونيو 2015م قام صبية من المقاتلين بإطلاق النار على 25 أسيراً من قوات الجيش السوري الحكومي بالمسرح الروماني في مدينة تدمر.[50] كما ارتكبوا جرائم صلب الناس أحياء وربطهم بالسيارات وجرهم وإغراقهم في سائل يغلي أو بتر أعضائهم أو حرقهم أحياء، كما تعرض الأسرى إلى تعذيب وحشي.

وقام التنظيم بتأسيس دولة غير معترف بها على الأراضي الواقعة تحت سيطرته تضم أجهزة للأمن وجيش ومدارس ومستشفيات ونظام ضريبي. ورغم الطابع البدائي في التخطيط والخطاب، إلا أن هياكل هذه الدولة ظلت قائمة لفترة مؤقتة.

ويسعى **المؤلِّف** هنا إلى وصف تطورات الحرب الأهلية في سوريا. وربما سيركز غيري من الباحثين على أحداث أخرى. حيث تشبه سوريا قطعه القماش المزرقشة. وكانت مناطق مختلفة وقرى ومدن تنتقل من حالة السلطة واللاسلطة عدة مرات.

وموضوعنا هنا هو علاقة روسيا بالأحداث السورية قبل 30 سبتمبر 2015م وهو التاريخ الذي شهد تدخلاً عسكريًّا روسيًّا مباشرًا في سوريا وبطلب من الحكومة السورية. وقد تواصل رغم الأحداث الدعم العسكري الروسي لسوريا وفق الاتفاقات الموقعة بين الطرفين سابقًا والتي يعود بعضها إلى الحقبة السوفيتية. كما قامت موسكو بتقديم الدعم الإنساني والمالي والاقتصادي. وحتى اليوم لا تتوفر أرقام رسمية حيث سنركز الحديث عن المكون الدبلوماسي في السياسة الروسية تجاه الأزمة السورية.

وسنتحدث تفصيلاً عن مواقف ومبادرات الحكومة الروسية في إطار الأمم المتحدة والمنظمات التابعة لها، وعن مساعي موسكو لإيجاد نقاط مشتركة مع واشنطن والدول الغربية واللاعبين الإقليميين تجاه الوضع السوري، وعن فشل ونجاح هذه المساعي.

وفي البداية سنتحدث عن اللاعبين الآخرين في الأزمة السورية. وسيكون المشهد منقوصًا إذا تجاهلنا العامل الإقليمي والعالمي في الحرب الأهلية السورية.

اللاعبون الإقليميون والعالميون

من الواضح للجميع السبب الذي دفع المهاجرين السوريين الذين يتبنون القيم الغربية الليبرالية وأصحاب المطامع في السلطة للسعي إلى خلع النظام البعثي. ونتفهم جميعًا السبب في اعتبار واشنطن وإسرائيل وحلفائهم **بشار الأسد** عدوًّا. ووفقًا لما نشرته صحيفة ''**وول ستريت جورنال**'' فقد أقامت واشنطن اتصالات مع الأجهزة السياسية السورية والحكومة لتدبير انقلاب عسكري وخلع **بشار الأسد**.[51]

كما أنه مفهوم للجميع المخاوف السعودية من إيران الشيعية. ولكن المثير للحيرة موقف قادة تركيا وقطر واللذان كان يرتبطان بعلاقات صداقة أسرية مع الرئيس السوري. قام هؤلاء بإطلاق دعوات بإجراء إصلاحات ديمقراطية. وكان كل منهما ينطلق من سبب أيديولوجي يهدف إلى مساعدة الإسلاميين المقربين منهما في سوريا على الوصول إلى الحكم مثلما حدث في مصر. وكما وصلني من أحد المصادر السورية قام رئيس الوزراء التركي حينها **رجب طيب أردوغان** وأمير قطر **تميم بن حمد آل ثاني** بإقناع **الأسد** بضم ''**الإخوان المسلمين**'' إلى تشكيل الحكومة ''كإجراء إصلاحي وتطوير للديمقراطية''.

وقامت الدوحة عاصمة الدولة الصغيرة والثرية في الوقت نفسه بدور كبير في الأحداث على الساحة العربية. حيث قامت بإرسال 6 طائرات مقاتله للمشاركة في الضربات الجوية في ليبيا وارتبطت بعلاقات وطيدة مع الجهاديين. وبعد مقتل القذافي وانتصار المعارضة الليبية شعرت القيادة القطرية بثقة زائدة في قراراتها.

في حين سيطرت على القيادة التركية أحلام استعادة أمجاد الإمبراطورية العثمانية وتحويل سوريا إلى محمية تركية. وبدا في تلك الفترة أن ''**الربيع العربي**'' أدى إلى تطورات وأحداث في صالح تركيا، ومنها على وجه التحديد مضاعفة قدرات تنظيم ''**الإخوان المسلمين**'' في مصر. وكما فعل القادة الغربيون أخطأ **أردوغان** عندما اعتقد أن النظام السوري في طريقه إلى الانهيار الوشيك. نظرت تركيا إلى أحداث الربيع العربية بكونها فرصة لدعم النفوذ التركي في النظام الإقليمي الجديد.[52]

وقد بالغت الدول الإقليمية والغربية في تقدير الوزن السياسي لجماعة الإخوان السورية

وتوقعوا سـرعة انهيار النظام ولم يضعوا في حسبانهم الواقع على الأرض وأمنوا أنفسهم بتكرار السـيناريو الليبي والتدخل العسـكري الخارجي المباشـر. وطالبت كل من الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسـا وبريطانيا وألمانيا في أغسـطس 2011م الرئيس **بشار الأسد** بالاستقالة. وأخطأ هؤلاء في تقدير تأثير هذه الخطوة على الحكومة السـورية وعلى الموقف بشـكل عام. وكان الكثيرون في المنطقة يعتقدون أن الخطوة التالية المنتظرة هي عملية عسـكرية مشـابهة لما حدث في ليبيا. وكانت بعض القوى الإقليمية والمحلية ترغب في ذلك إلا أن الولايات المتحدة الأمريكية لم تكن تفهم أو تدرك شيئًا عن حقيقة الوضع في سوريا.[53]

إن الخطـأ في تقدير الموقف وتوقع قرب انهيار النظام كان من أهم الأسـباب التي دفعت إلى زيادة الضغط على دمشق. أصبح الزعماء الغربيون أسرى للأحاديث الخطابية الخاصة بهم والتقدير الخاطئ لأحداث الربيع العربي المتلاحقة وبدت دعوتهم **للأسد** بالاستقالة من منصبة بالنسبة إليهم أنفسـهم وبالنسـبة لحلفائهم خطوة ضرورية ومضمونة الوقوع.[54] فلم نبحث عن حلول وسـط إذا كان النظام سينهار لا محالة قريبًا، وحتى إذا ما بقي فإن التدخل الغربي سيتكفل بخلعه؟

قام الاتحاد الأوربي وجامعة الدول العربية، وكذا الولايات المتحدة الأمريكية، وكندا، وتركيا، وأسـتراليا بفرض عقوبات اقتصادية ضد سوريا. كما جمدت الجامعة العربية علاقاتها بالبنك المركزي السوري والحكومة السورية.[55] وكان أمير قطر أول من صرح بضرورة تسليح الثوار.[56]

وفي كل الأحـوال فقـد اجتمع معارضو الحكومة السـورية على دعم المعارضة السـورية دبلوماسيًّا وسياسيًّا وبالمال والسلاح.

أما عن الأطراف الداعمة للمعارضة وكيف دعمت وأي فصيل معارض اختارت فقد بقى ذلـك سـرًّا. ولكن نادرًا ما كانت تصدر تقييمات صريحة للوضـع على غرار ما أعلنه نائب الرئيس الأمريكي **جو بايدن**.

فقد صرح أثناء خطابه أمام طلاب مدرسـة **كيندي** بجامعة **هارفارد** في أكتوبر 2014م بقوله: ''إن مشـكلتنا الكـبرى في حلفائنا: الأتراك والسـعوديين والإماراتيين وغيرهم. فهم يتوقعون خلع نظام الرئيس **الأسد** ونشوب حرب سنية شيعية عبر وسطاء. لقد قاموا بإرسال مئات الملايين من الدولارات وعشرات بل آلاف الأطنان من السلاح إلى كل من يقاتل ضد **بشـار الأسـد**''. وأضاف: '' مثل هذه السياسـة يمكن أن تقود إلى دعم المقاتلين المنتمين

للقاعدة و**داعش** في النهاية"[57]

كما كتب مراسل **البي بي سي**: " الأمر ليس كما يقول. فقد قام أعضاء إدارة الرئيس أوباما بإطلاق تصريحات مماثلة أكثر من مرة، ولكن الجديد أنه صرح بذلك علنًا، وفي الوقت الذي تسعى فيه واشنطن إلى الحصول على دعم إقليمي لشن حرب ضد **داعش**. وقد تضمن تصريحه الحديث عن تقديرات مختلفة من قبل الولايات المتحدة وجيران سوريا لتحديد من المسئول عن ازدياد قوة ونفوذ **داعش**" [58]

لم تعلن الولايات المتحدة عن مساعداتها للمعارضة المسلحة، إلا أنه سرعان ما تكشفت حقائق فاضحة. فقد تبين أن الأمريكيين قد قاموا في تركيا بتدريب وتسليح مقاتلي ما يسمى بالمعارضة المعتدلة. وفي 21 سبتمبر 2015م عبر 75 مقاتلاً سوريا قام الأمريكان بتدريبهم الحدود التركية السورية بسيارات دفع رباعي. ولكنهم انضموا إلى "**جبهة النصرة**". وقام الأمريكيون بتدريبهم على القيام بعمليات عسكرية ضد **داعش**. وكانت هناك خطة لتدريب خمسة آلاف مقاتل بتكلفة تقدر بنصف مليار دولار، ولكن بعد هذه اللطمة القوية تم صرف النظر عن هذا البرنامج.[59]

كان ذلك في سبتمبر 2015م. ولكن قبل ذلك وفي عام 2014م أدت الضغوط التركية والإماراتية إلى إرغام **جو بايدن** على التصريح "بأنه لم يكن يقصد أن الحلفاء كان يدعمون عمدًا **داعش** وغيرهم من الجماعات المتطرفة "[60]

ولم يغير "**اعتذاره**" هذا من حقيقة الأمر شيء.

وفي أنقرة صرح المسئولون أن اعتذار **جو بايدن** قد طوى صفحة الخلاف، في حين أصدر البرلمان التركي في خريف 2014م قرارا بالسماح باستخدام القوة في سوريا، وهو ما فتح الطريق أمام دور أكثر فعالية لتركيا في التحالف ضد **داعش**.

ولم يكن هناك شك في أن هناك تدفقًا للسلاح والأموال لمقاتلي **داعش** من قبل الدول التي أشار إليها **جو بايدن**. كما أشار الخبراء والمحللون الأمريكيون المتخصصون في القضايا الإقليمية بالمنطقة إلى الدعم المالي المباشر للجماعات المتطرفة من قبل دول داعمة في المنطقة. وصرحت هذه الدول بالفعل ومنذ المراحل الأولى للأزمة وبشكل شبه رسمي بدعم تسليح الثوار. حيث قام الخطباء في المساجد بالدعوة علانية لجمع المال وإرسال المتطوعين للقتال

في سـوريا.[61] وقدمت السعودية دعمًا عسكريًّا لفصائل الثوار. وفي ديسمبر 2012م قامت الرياض بتوريد أسـلحة يوغوسـلافية الصنع من كرواتيا إلى المعارضة السـورية.[62] وفي صيف 2013م ارتفع حجم الواردات من السـلاح وكان ذلك تحت إشراف سفير المملكة الأسبق في واشـنطن ثم رئيس الاسـتخبارات الأمير **بندر بن سلطان**. وقد أقيل من منصبه بعد فشل المعارضة السورية.

وقـد ضمنت تركيا وقطـر تقديم الدعم **للإخوان المسـلمين** وغيرها مـن التنظيمات الإسلامية المسـلحة في سوريا. وذهب وزير الخارجية القطري **خالد بين محمد العطية** بعيدًا أثناء كلمته في منتدى المعهد الدولي لدراسـات قضايـا الأمن في 2012م حيث صرح أنه ''يعارض بشدة تجاهل أي طرف في هذه المرحلة من النضال ضد **الأسد** أو وصفه بأنه ينتمي إلى تنظيم القاعدة''.[63]

و كما أكد مسـئولون في الإدارة الأمريكية فإن جزءًا مما تم إرساله قد وقع في يد ''**جبهة النصرة**''.و اعتبرت قطر دومًا مصدرًا رئيسـيًّا لتمويل **داعش**. وفي 22 أغسطس 2014م اتهم السياسي الألماني **جيرهارد موليز** مباشرة دولة قطر.[64] فيما أكدت السلطات القطرية أنها لا تمول سوى المعارضة المعتدلة في سوريا.[65]

وكتبت صحيفة ''**فاينانشـال تايمز**'' أن قطر قد منحت المعارضة مسـاعدة تتراوح بين 1 – 3 مليـار دولار في أول عامين من الحـرب الأهلية.[66] وكان الجندي الذي يتخلي عن خدمته في الجيش يحصل على 50 ألف دولار لعائلته. ووفقًا لبيانات معهد ستوكهولم لأبحاث السلام الدولية فقد قامت قطر بتوريد أسلحة لسوريا أكثر من أي بلد آخر. وخلال الفترة بين إبريل 2012 ومارس 2013م قامت 70 طائرة شحن بنقل هذه الأسلحة.[67]

وفي قطر وبالتعاون مع الولايات المتحدة الأمريكية تم تأسـيس معسـكر تدريب يتم فيه إعداد وتدريب 1200 مقاتل سنويًّا لمدة 3 أسابيع على يد عسكريين قطريين. وتدعم قطر الثـوار المعتدلين ومن يطلقون على أنفسـهم ''**جيش الفتح**'' والـذي يضم فصائل مرتبطة بالقاعدة.[68]

وبمرور الوقت بدأت بلدان الخليج في وقف تدفق التمويل لفصائل المعارضة السـورية بعد النجاحات التي حققتها **داعش** في العراق واحتلالها أراضي شاسعة. وصرح مفتي المملكة العربية السـعودية الشيخ **عبد العزيز آل شيخ** أن ''أفكار التطرف والإرهاب لا صله لها بالإسلام. بل إنها بمثابة العدو رقم واحد للإسلام''. وذكر ''**القاعدة**'' و''**داعش**'' تحديدًا.[69]

ووقعت بعض الخلافات بين الدول الداعمة للمعارضة المسلحة في سوريا. حيث اصطدمت طموحات قطر مع سعي السعودية للعب دور محوري في المنطقة. وسبقت السعودية قطر في دعم المعارضة المعتدلة في سوريا متمثلة في الجيش السوري الحر. فرد القطريون بدعم ''**جبهة النصرة**''. وقامت قناة ''**الجزيرة**'' القطرية بتوجيه بعض الهجوم والانتقاد إلى الأسرة الحاكمة في المملكة. ووصل الأمر إلى حد الأزمة في مارس 2014م عندما استدعت السعودية والبحرين سفراءهما من الدوحة.[70]

وصرح أمير قطر تميم في سبتمبر 2014م أن ''قطر لم تدعم أبدًا ولن تدعم التنظيمات الإرهابية''[71] غير أن دعمه للتنظيمات الأخرى بالسلاح قد أدى إلى تسليح **داعش**.

وقد تجاهل المسئولون الأمريكيون طويلاً الحديث عن عمليات تهريب النفط إلى تركيا والتي كانت بمثابة تجارة مزدهرة ورابحة. غير أن هناك وثائق تؤكد استمرار تدفق المقاتلين بما فيهم المتطرفون الأجانب عبر الحدود التركية الطويلة مع سوريا. وأعلن الصحفيون الغربيون أكثر من مرة عن عبور المئات بشكل غير شرعي للحدود. والتقى هؤلاء بمقاتلين أجانب في سوريا ومنهم أوربيون يحاربون في سوريا أعلنوا أنهم وصلوا عبر الأراضي التركية.

وصرح **كريستوفير هارمير**، أحد أهم المحللين العسكريين في معهد دراسات الحرب، لقناة **بي بي سي** أن مقاتلي **داعش** قد حصلوا على تصريح باستخدام أراضي تركيا على الأقل ''كمنطقة تحرك حر'' غير أن أنقرة كانت توفر أيضًا الدعم اللوجيستي المباشر لمقاتلي ''**جبهة النصرة**'' أثناء الحرب الأهلية.[72]

وعلى مدى عقد كامل وقبيل مطلع 2011م وصفت العلاقات التركية السورية بالودية وكانت أكثر قوة من أي فترة أخرى مضت. ويتذكر الأتراك أن الرئيس **حافظ الأسد** لم يسمح للزعيم الكردي **عبد الله أوجلان** بالإقامة في سوريا. وشهدت العلاقات الثنائية بين البلدين حالة من الدفء، وتم تسوية كافة القضايا الحدودية.[73] وبعد اندلاع الحرب الأهلية حدث فصل كامل بين الطرفين، حيث كان الجنود الفارون من الجيش السوري يحصلون على تدريب داخل الأراضي التركية. وتجمع هؤلاء في البداية في فصيلين تحت اسم ''**القيادة**'' و''**الجيش السوري الحر**'' وتم ذلك تحت إشراف المخابرات التركية.[74] ومنذ أكتوبر 2011م شرعت تركيا في إنشاء معسكرات تدريب على أراضيها بالتعاون مع دول عربية ووفرت للثوار السلاح والعتاد.[75]

واتخذت تركيا عدة خطوات لفرض سيطرتها على الحدود والحد من تهريب النفط.

وصرح المحلل البريطاني **باتريك كوكبيرن** نقلاً عن ضابط مخابرات يعمل بالشـــرق الأوسط أن مقاتلي **داعش** فرحوا بحصول المعارضة الســـورية ضد **الأســـد** على الســـلاح حيث كان بمقدورهـــم الحصول عليه منهم. ويخلـــص **كوكبيرن** إلى أن الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي والحلفاء الإقليميين هم من وفَّر الظروف لصعود **داعش**.[76]

ومن الصعب تفســـير السياســـة التركية بالمنطق. فالمنطقي أن تكون تركيا الرسمية وزعيمها **أردوغان** معنيين باستقرار النظام السوري الذي كان يضمن توفير حالة من الهدوء على الحدود بين البلدين ولا يســـمح للأكراد الســـوريين بتقديم الدعم للأكراد في تركيا عبر الحدود الممتدة لأكثر من 400 كيلومتر التي لا تحظى بحماية كافية. كما لم يكن هذا النظام يرسل إرهابيين إلى تركيا أو إلى غيرها من دول العالم. وكان على **أردوغان** ألا يتدخل في الشـــؤون الداخلية الســـورية وهو الوضع الأمثل بالنسبة له. غير أن الحلم باســـتعادة أمجاد الإمبراطورية العثمانية والذي تحدث عنه في البداية وزير الخارجية ومن بعده رئيس الوزراء **أحمد داود أوغلو** والأمل في تحويـــل ســـوريا إلى محمية تركية والتقـــارب الفكري مع الإســـلاميين والتعويل على الدعم الأمريكي دفع تركيا في اتجاه آخر. كان الشـــعار الســـائد هو "**أن بشـــار يجب أن يرحل**" ولتحقيق هذا الهدف فكل شيء متاح، وهو ما سيطر على السياسة التركية لفترة طويلة.

وفي مايـــو 2015م وقعت فضيحة علنية حيث نشـــرت صحيفـــة "**جمهوريات**" مادة مصورة عن قيام المخابرات التركية بإرســـال السلاح إلى الثوار الإسلاميين في سوريا. وتم اتهام رئيس التحرير و30 شخصًا شاركوا في التحقيق بخرق قوانين مكافحة الإرهاب وإفشاء أسرار الدولة ومحاولة إسقاط الحكومة والتجسس.[77]

وعندما تم فرض حصار على مدينة **كوباني** تم توجيه اتهامات إلى الســـلطات التركية بأنها سمحت لمقاتلي **داعش** بالهجوم على الأكراد انطلاقًا من الأراضي التركية وللقناصة في **داعش** بإطلاق النار من هناك على الأكراد. وترددت تأكيدات أن تركيا تعد ممر عبور للشـــاحنات، وأشـــخاص يرتدون بزات عسكرية تركية لنقل الســـلاح إلى مقاتلي **داعش**. وفي أثناء المعارك بين **داعش** والأكراد كانت ســـيارات الإســـعاف التركية تقوم بنقل الجرحى من الإرهابيين إلى الأراضي التركية.[78]

ويمكننا الحديث طويـلاً عن العلاقات التركية الكردية. ففي مارس 2013م أعلن حزب العمال الكردسـتاني والسـلطات في أنقرة عن توقيع اتفاق هدنة بين الطرفين. والتزم الحزب بإجلاء الفصائل المسـلحة التابعة له إلى شمال العراق. إلا أن الطرفين قاما بخرق الاتفاق. وفي عام 2014م تم انتخاب **أردوغان** رئيسًـا لتركيا. وفي خطوة نحو تغيير الدستور وتحويل تركيا إلى نظام رئاسي أخذ **أردوغان** يتقرب من القوميين المعادين للاتفاق مع الأكراد. وقامت أنقرة بدعم اتصالاتها مع بارزاني في شمال العراق، كما تعاقدت على شراء النفط الكردي. وتوقف **بارزاني** عن دعم الأكراد في تركيا الموجودين على أراضي كردستان العراق.

وأدى تطور الأحداث في سوريا إلى تأسيس إقليم حكم ذاتي في كردستان سوريا في شمال شـرق البلاد. واسـتولت فصائل الدفاع الشـعبي على مدينة **كوباني** على الحدود مع تركيا. وهاجمت **داعش** المدينة. وقامت القوات الأمريكية بقصف **داعش** أثناء الهجوم.[79]

وسـرعان ما أصبـح مربع أمريكا – تركيا – الأكراد – الجهاديـين مثار إزعاج: فالأتراك يقاتلـون ضـد الأكراد الترك بزعامة حزب العمال الكردسـتاني. وفي الوقت نفسـه يقاتلون ضـد الجهاديـين في **داعش** الذين يتلقون الدعم عبر الأرضي التركيـة التي يتم عبرها تصدير نفـط **داعـش** وتهريبه. والأمريكيون الذيـن أعلنوا في عـام 1997م إدراج ''حزب العمال الكردستاني'' ضمن قائمة الإرهاب يقدمون الدعم علانية (بالسلاح وجنود القوات الخاصة) إلى فرع الحزب في بسوريا والذي أصبح بالفعل حليفًا لدمشق. كما قامت القوات الأمريكية بقصف **داعـش**. و**داعش** تحارب الأكـراد والأتراك والأمريكيين والحكومـة العراقية الموالية لأمريكا في بغداد والحكومة السـورية المعادية لأمريكا في دمشـق. ومع الوقت ازداد الغموض واختلطت الأوراق أكثر فأكثر.

وبضغط من واشـنطن وغيرها من العواصم سمحت أنقـرة بتقديم الدعم للأكراد في عين العـرب **كوباني** فهبت قوات البشـمرجة التابعة **لبرزاني** ومقاتلون من الجيش السـوري الحر للمسـاعدة. وفي ينايـر 2015م تم طرد قوات **داعش** من **كوباني**. غـير أن الهدنة الموقعة بين أنقرة وبين حزب العمال الكردسـتاني سرعان ما انهارت واندلعت من جديد المعارك بين الثوار الأكراد والجيش التركي. واتهمت واشـنطن حزب العمال الكردستاني بالإرهاب في عام 1997م، ولكنهم اكتشفوا لاحقًا أن فرع الحزب في سوريا يحارب بفاعلية ضد **داعش**.[80]

وكتـب **باتريك كوكبيـرن** أن هناك ''دلائل مهمة على التعـاون'' بين المخابرات التركية و**داعش** على الرغم من ''أن الطابع الدقيق للعلاقات لا يكشـف عن نفسـه علانية''.[81]

وفي أكثر من مرة تحدث الباحثون الغربيون ومسـئولون رسميون مصريون عن تأييدهم لفرضية التعـاون بين تركيا و**داعش**. وكانت الضربات التركية للأكراد تتم بالتنسـيق مع **داعش**. وتم علاج الجرحى من **داعش** في المشافي التركية.

واتهم الأتراك بكونهم حولوا أراضيهم إلى ''**بوابة للجهاد**''.[82] وكان حرس الحدود الأتراك يسـمحون لأي شخص بالعبور إلى سوريا مقابل رشـاوٍ صغيرة. وهو ما أكدته قناة **سكاي نيـوز** الأمريكية وصحيفة ''**جارديان**'' البريطانية وموقع ''**المونيتور**'' وعدد من الباحثين في جامعة كولومبيا منهم أمريكيون وأتراك وأوربيون.

وبعد العمليات الإرهابية التي وقعت في 2015م في باريس طالبت الإدارة الأمريكية تركيا بإغلاق حدودها أمام تغلغل مقاتلي **داعش**. وصرح مسـئول أمريكي رفيع لصحيفة ''**وول ستريت جورنال**:'' إن قواعد اللعبة قد تغيرت. كفى. يجب إغلاق الحدود''.[83]

وفيمـا يلي تقييم رئيس الوزراء الروسـي **دميتري ميدفيديف** للموقـف: «تقوم القوات التركية في حقيقة الأمر بحماية تنظيم الدولة. ونحن لا نتعجب حينما تردنا أخبار عن مصالح مباشرة يحققها بعض المسئولين الأتراك من تهريب المواد النفطية المكررة في معامل تسيطر عليها **داعش**».[84] كما يتم تهريب وبيع الآثار القديمة عبر الأراضي التركية.

وصرح زعيم المعارضة التركية **كمال كيليتشدار أوغلو**: «إنه أمر غير عادل أن يتم تدريب الجماعات المسـلحة على الأراضي التركية. أنتم تجلبون المقاتلين الأجانب إلى تركيا وتضعون المال في جيوبهم وتمدونهم بالسـلاح ثم تدفعونهم لقتل المسلمين في سوريا».[85] وفي 16 فبراير 2016م اتهم من جديد الحكومة التركية بأنها ترسل السلاح إلى الجهاديين في سوريا وقامت بإنشاء معسكر لإعداد وتدريب المقاتلين على الأراضي السورية.[86]

وفي يوليـو 2016م تسـربت وثائق مـن وزارة الخارجية الألمانية تفيد بـأن تركيا تدعم الجماعات الإسـلامية الإرهابية في كل دول الشـرق الأوسـط.[87] كما حصلت المخابرات الأمريكية على وثائق تؤكد وجود اتصالات مباشرة بين مسئولين أتراك وقيادات في **داعش**.[88]

اتسـمت المصـالح التركية في سـوريا بالتعقيـد. فعلى شـاطئ نهر الفـرات تقع مقبرة **سليمان شاه** في سـوريا (1178-1236م وهو جد مؤسس الإمبراطورية العثمانية **عثمان**

الأول. 1236–1258م) وتقــوم على حراســتها قوات تركية. وقــد تعرض المبنى والجنود الأتراك وخدام المقبرة لمخاطر عديدة. وفي مســاء 21 فبراير 2015م قامت الدبابات التركية وجنود المشــاة بالدخول إلى الأراضي السورية عبر مدينة عين العرب **كوباني** الكردية لإجلاء الجنود الأتراك ونقل المقبرة. وتم التنسيق مع الأكراد السوريين أثناء تنفيذ العملية.

ويمكن القول بثقة أن ملك الأردن **عبد الله الثاني** كان يعي خطورة التطرف الإســلامي. إلا أن بلده الفقير كان يعتمد على الدعم والرعاية السياسية الأمريكية ودعم الخارج؛ ولذا فقد قامت الأردن بإنشاء معسكرات لتدريب المقاتلين. وعبر أراضي الأردن تم إرسال المساعدات إلى جنوب سوريا. وفي صيف 2013م وعبر الأردن حصلت المعارضة على شحنات ضخمة من السلاح والعتاد والذخيرة وعشرات من الدبابات الحديثة.[89]

وشــهد العقد الماضي توجه سوريا وإيران إلى توطيد علاقاتهما والتعاون فيما بينهما. وقد دفعهما إلى ذلك تواجد القوات الأمريكية على أراضي العراق. وكان الرئيس **الأســد** هو أول رئيس دولة يزور إيران بعد تولي **أحمدي نجاد** منصبه رئيسًا لإيران في 2015م. كان موقف البلدين تجاه الوضع في العراق متطابقًا، وكذا حول العلاقات الفلسطينية الإسرائيلية والوضع في لبنان. ولم يحرص أي منهما على استعداء حكام العراق الموالين لأمريكا. كما أنهما عارضا في الواقع إنشاء دولة كردية مستقلة في شمال العراق. وخلال هذه الفترة تطورت العلاقات الثنائية بين طهران ودمشق في المجال الدفاعي.[90]

وبالطبع كان هذا التقارب يثير حفيظة واشــنطن وتل أبيب. وربما كان هذا هو الســبب تحديدًا في مسارعة واشنطن لدعم قوات المعارضة السورية مهما كانت توجهاتها.

وقبيــل الأزمة الســورية كانــت العلاقات بين ســوريا وإيران قد وصلــت إلى التحالف الإســتراتيجي. كانت هناك خلافات تمثلت في سعي سوريا للحفاظ على علاقات ودية مع الدول العربية الســنية أملاً في الحصول على الدعم المالي. ولكن ومنذ اندلا ع الحرب الأهلية السورية ظهر التعاطف والدعم الواضح بين الطرفين. قدمت إيران دعمًا لوجيستيا وفنيًّا وماليًّا لحكومة الســورية وشــاركت في تدريب الجيش الســوري.[91] وتم توريد شحنات من الأسلحة الإيرانية إلى سوريا.

كان الدعم الإيراني لســوريا يتفق مع المصالح الإيرانية. إلا أنه لا توجد أرقام محددة حول هذا الدعم.

كما تعاونت المخابرات الإيرانية مع نظيرتها السـورية. وقدمت إيران لسوريا معدات فنية حديثة لتتبع المحادثات الهاتفية وشـبكات الكمبيوتر والتواصل الاجتماعي.[92] وتعد التقنيات الإيرانية من الأحدث في العالم.

وتؤكد بعض المصادر أنه بنهاية 2013م بلغ عدد الموظفين الإيرانيين في سوريا (عسكريين ومدنيين) حوالي 10 آلاف شـخص بمـا في ذلك المقاتلون في الفرق العسـكرية. وتختلف التقديرات حتى يومنا هذا من عدة مئات إلى 10 آلاف.

وقام رئيس الحرس الثوري الإيراني **قاسـم سليماني** بصياغة إستراتيجية عسكرية للحكومة السـورية وسـاعدها في إعادة تنظيم القوات المسـلحة السـورية وتدريب المتطوعين الموالين للحكومة. وأكدت المعارضة السـورية أن حجم الدعم المالي الإيـراني يفوق التصور. وعلى الرغـم من أن الأرقام التي أوردتها غير واقعية إلا أن إيران بالفعل قدمت دعمًا نفطيًّا وبالوقود والغذاء إلى سوريا. وقد تم شحن جزء منها مباشرة عبر العراق، حيث سمحت الحكومة العراقية الشيعية الصديقة لكلا البلدين بمرور الطائرات الإيرانية على الرغم من رفض واشنطن.

وفي صيف 2013م وبدعم من إيران و»**حزب الله**» تمكنت القوات الحكومية من تحقيق نجاحات مهمة.

ووفقًا لمصادر غير مؤكدة فقدت قوات الحرس الثوري الإيراني أكثر من 1100 شـخص في سـوريا في عام 2013م منهم 360 ضابطًا والباقـي من المتطوعين والمرتزقة وأغلبهم من أفغانسـتان وباكسـتان الذين يخدمون في قوات الحرس مقابل المال أو أملاً في الحصول على الجنسـية الإيرانية. وفي 2013م لقي بعض الجنرالات الإيرانيـين مصرعهم أثناء المعارك.[93] وشهدت الحرب السورية مشاركة مقاتلي الباسيج الإيرانية ومتمردين شيعة من العراق. ويقدر البعض أعدادهم «بالآلاف».[94] كما أن هناك تقديرات بالخسائر الإيرانية في عام 2015م التي بلغت 121 قتيلاً من قوات الحرس الثوري.[95] وتختلف الأرقام باختلاف المصادر.

وفي إبريـل 2014م صرح نائب وزير الخارجية الإيراني **حسـين أمير عبد الحيان** قائلاً: «إننا لا نسعى إلى بقاء **بشار الأسد** مدى الحياة رئيسًا لسوريا. ولكننا لا نوافق على استخدام الأسـاليب الإرهابية والعنف لخلع **الأسد** والحكومة السـورية».[96] وربما تعبر هذه العبارة عن السياسـة الإيرانية: فطهران لم تراهن على **الأسد** كشخص ولكن المسئولين الإيرانيين صرحوا لي أكثر من مرة أنه وفي الفترة الحالية لا يوجد غير **الأسد** بمقدوره الحفاظ على استقرار الدولة، وربما تنطلق المرحلة الانتقالية فيما بعد بتخليه عن السلطة.

وتم التنسيق بين موسكو وطهران وخاصة في النصف الأول من عام 2015م عندما كان موقف النظام ووضعه شديد الحرج.[97]

ويمكن إيجاز موقف الحكومة الإسـرائيلية تجاه الحرب الأهلية السورية في السؤال التالي: ما هو الأهم بالنسـبة لأمن إسرائيل؟ إن انتصار الجهاديين يمثل خطورة أكبر: فعلى خط الهدنة في مرتفعات الجولان يمكن أن تظهر فصائل مختلفة سرعان ما تتحول إلى جيش من المتطرفين المعادين لإسـرائيل. وماذا لو انتصر **الأسد**؟ على مدى عقود من حكم الأب والابن لم تقع أي حادثة على خط الهدنة. ولكن الخطاب السوري البعثي الشبيه بالإيراني وتحالفه مع حزب الله اللبناني الذي سـبق له هزيمة إسـرائيل في لبنان عام 2006م كان أيضًا من أسباب رفض إسرائيل لفكرة انتصار **الأسد** ودعم النظام.

دفع هذا المنطق القيادة الإسـرائيلية إلى الدفع في اتجاه اسـتمرار الحرب الأهلية في سوريا: فليقضِ أعداء إسرائيل على بعضهم البعض. وتواردت أخبار عن قيام إسرائيل بتزويد المعارضة بالسلاح وعلاج المقاتلين في مشاف إسرائيلية. وفي أكتوبر 2014م قامت إسرائيل بإسقاط مقاتلة سورية قاذفة من طراز سو24- فوق مرتفعات الجولان الخاضعة للسيطرة الإسرائيلية.[98]

وفي حالات عديدة قام الطيران الإسـرائيلي بقصف مواقع فصائل «**حزب الله**» حليف **الأسد** وفي الوقت نفسه مواقع الجيش السوري وبالتنسيق مع الجهاديين. وأحيانًا كانت تقصف مواقع الجهاديين. وصرحت الخارجية الروسـية أن العمليات الإسرائيلية غير المبررة ضد سوريا تمثل خرقًا فاضحًا لميثاق الأمم المتحدة ولا يمكن قبولها مهما كانت الدوافع والأسباب».

وماذا بعد؟ كيف يبدو مستقبل العراق وسوريا جيران إسرائيل؟ ومتحدثًا بالنيابة عن قطاع كبير من النخبة الحاكمة، صرَّح وزير الدفاع الإسـرائيلي السـابق **موشي يعلون** في 27 فبراير 2017م في موسـكو: « إن سـوريا والعراق هما دول مصطنعة حل محلها كيانات جديدة، وهي علوسـتان السورية، وكردستان السـورية، ومنطقتان للسنة، وفي العراق ظهرت كردستان وشيعة ستان وغيرها».

ولم تتحول التصريحات إلى أفعال وبقيت العلاقات الروسـية الإسرائيلية متوازنة. وفي مايو 2013م قام رئيس الوزراء الإسرائيلي **بنيامين نتنياهو** بزيارة إلى موسكو كان من بين أهدافها إقناع القيادة الروسية مرة أخرى بعدم إمداد سوريا بمنظومات صواريخ إس 300- وغيرها.

وبعـــد اندلا ع الحرب الأهلية الســـورية بعامين أو ثلاثة؛ أصبح النقـــاش الدائر في بلدان الاتحـــاد الأوربي يتمركز حول الطرف الذي يجـــب دعمه من قبِل الأوربيين وكيفية التعامل مع مئات الجهاديين الذين يسافرون من أوروبا للقتل في سوريا.

وفي ســـوريا أخذت تتشـــكل بنية وهيكل الجماعات الإرهابيـــة. ويعيش في أوروبا حوالي 19 مليون مســـلم. أخذ المحللون الأوربيون يتحدثون عن ضرورة التعاون مع النظم العلمانية القومية في الشـــرق الأوســـط التي تحارب الإرهاب كونها أفضل بكثير من التعاون مع أنظمة يحكمها جهاديون كارهون للثقافة والتقاليد الغربية.

ومع الوقت، أصبح الأوربيون يتفهمون العلاقة الوثيقة التي تربط الراديكاليين في الشـــرق الأوسط والأدنى بوضع القاعدة في أوروبا، حيث أصبح من الممكن إثارة الكراهية ضد الغرب.

وفي حواراتي مع السياسيين البريطانيين في عام 2014م، أبلغوني أن الغرب ارتكب ثلاثة تقديرات خاطئة في سوريا. **الخطأ الأول** في أن **بشار الأسد** ثبت أنه زعيم قوي وليس مثقفًا غير متزن، كما يعتقد البعض. و**الثاني** في أن النظام السوري قد تمكن من الحفاظ على ولاء الجيش وأجهزة الأمن له ولم تحدث حالات فرار جماعي من الجيش. و**الثالث** أن النظام احتفظ بقاعدة مجتمعية ليس فقط بين العلويين والمسيحيين بل وبين أغلب المواطنين السنة. وللأسف لم تسهم هذه الاستنتاجات من قبل المثقفين والباحثين في تغيير نهج البلدان الغربية في التعامل مع الأزمة، حيث كان الهدف الأسمى ليس فقط خلع نظام البعث بل وتوجيه الهزيمة لروســـيا وإيران. سيطر غياب الحكمة على الحكومات الغربية.

وتعاملـــت دول الخليج مع المتغيرات في الوضع الســـوري. ففي قمـــة الجامعة العربية التي عقدت في الكويت في شـــهر مارس 2014م تم ولأول مرة دعوة الروس للحضور منذ بداية أحـــداث الربيع العـــربي في 2011م. وكان ذلـــك بمثابة دليل على الوعـــي بالآثار الكارثية للأحداث المتصاعدة على العرب.

كما اضطر الأمريكيون إلى تصحيح سياســـاتهم. حيث قاموا على الأقل بالاعتراف بأن الإرهابيين في سوريا يمثلون قوة حقيقية.[99] وبدأوا يتحدثون أخيرًا عن ضرورة بذل جهد جماعي في مكافحـــة الإرهاب. وتراوح موقـــف أمريكا والغرب بين الإعلان عن تقديم مســـاعدات إنسانية وبالسلاح للمعارضة، والإعلان عن وقف المساعدات العسكرية.

ماذا على روسيا أن تفعل؟

عندما لم تكن الأزمة الســورية قد وصلت بعد إلى ذروتها اجتمع مجلس نادي «**فالداي**» الدولي بمدينة **سوتشــي** في يناير 2012م لبحث الوضع في الشــرق الأوسط. وحينها قمت في معرض تقييمي للوضع في سوريا بطرح الأفكار التالية: «1- قبل أي شيء يتوجب وقف نزيف الدم. 2 - أن الأزمة السورية يجب أن تحل من قبل السوريين أنفسهم وبالطرق السلمية. 3 - يجب عدم الســماح بالتدخل الأجنبي في الشــأن الســوري». وقد لقيت هذه الأفكار تأييد نائب وزير الخارجية الروســي **ميخائيل بوجدانوف** الذي كان حاضرًا. وإذا ما نظرنا إلى المقترحات الروســية لحل الأزمة في ســوريا على مدى عامين من الحرب الأهلية فإنها جميعها تتمحور حول هذه النقاط بشــكل أو بآخر. وأنا هنا لا أدعى تفردي بها أو أنني أذكى من الآخرين أو أن أفكاري تمثل أساسًــا للسياســة الخارجية الروسية. بل إن هذه الأفكار مبعثها منطق أســلوب الدبلوماسية الروسية ليس فقط في الشرق الأوسط والأدني؛ بل وفي غيرها من مناطق العالم.

ومع مــرور الوقت أضيف إلى هذه المبادئ الثلاثة مطلب بضــرورة الحفاظ على الوحدة الإقليمية، وسيادة الدولة السورية، والالتزام بحقوق الأقليات القومية والدينية.

وهناك نقطــة أخرى تغيرت وتتعلق بالتدخل الأجنبي. فــردًّا على تدفق مقاتلين أجانب إلى ســوريا تدخل «**حزب الله**» اللبناني في الحرب وفصائل شيعية عراقية، وعسكريون ينتمون إلى الحرس الثوري الإيراني. وفي النهاية تدخلت القوات الجوية الفضائية الروســية في المعارك، ووجهت ضربات جوية لمواقع التنظيمات الإرهابية؛ تلبية لطلب من الحكومة السورية. فلماذا وكيف حدث ذلك؟ سنحاول الإجابة على هذا السؤال في الفصل القادم.

دعمت روســيا نظام **الأســد**، وفي الوقت نفســه ظلت تدعو إلى وقف العنف وجلوس الســوريين على مائــدة المفاوضات. لماذا لم تبق روســيا على الحياد؟ طرح هذا الســؤال في موسكو. فكان الرد: وما هو البديل للنظام البعثي؟ الإسلاميون وحدهم أو الفوضى العارمة. وهذا تحديدًا هو ما لا يســتطيع شــركاؤنا في الغرب فهمه. فمنطق سياســتهم يخلص في أن **الأسد** يجب أن يرحل ثم ننظر ما سيحدث. غرق الغرب في مستنقع من الأوهام، وأدى ذلك

إلى إطالة أمد المأساة السورية.

ناضلت روسيا سياسيًّا من أجل التوصل إلى تسوية سياسية في سوريا في السنوات الأولى للحرب الأهلية. وقد قامت الباحثة والدبلوماسية **م. خودينسكايا جولينيشيفا** بسرد هذه الحقائق في كتابها «**على الجانب الصائب من التاريخ**».[100] ومن خلال مشاركتها شخصيًّا في العمل الدبلوماسي ودراسة الوثائق باهتمام قامت بتوصيف المواقف الروسية في مجلس الأمن ومجلس حقوق الإنسان والأمم المتحدة، وعرض الجهود الروسية للتوصل إلى اتفاق مع الولايات المتحدة، وتنظيم حوار سوري سوري.

وأنا لا أتفق دومًا مع رأي هذه الباحثة الشابة. فأحيانًا تستشعر شغفها بالمعارك الدبلوماسية واستيائها من المعايير المزدوجة للسياسات الغربية. لكن أفكارها والمادة التي تطرحها تعكس التوجه العام داخل الخارجية الروسية والقيادة الروسية ما يمنح كتابها قيمة إضافية.

وقد اعتمدت على خبرة طويلة تمتد لأكثر من نصف قرن في دراسة السياسة الدولية. فكيف لى ألا أتذكر العدوان الثلاثي على مصر من قبل إنجلترا وفرنسا وإسرائيل في عام 1956 عندما تآمرت إنجلترا وفرنسا مع إسرائيل ضد مصر بحجة وقف الملاحة في القناة. أو أن أنسى حادث خليج **تونكين** في عام 1964م عندما تعرضت السفن الحربية الأمريكية لهجمات من قبل قوارب طوربيد فيتنامية، واعتبر ذلك حجة ومبررًا لقصف هذه البلاد على مدى عدة سنوات. وكيف لى أن أنسى قصف صربيا في عام 1999م. وقد ذكرنا في أحد فصول هذا الكتاب كيف قام وزير الخارجية الأمريكي **كولين باول** بالتأكيد على أن العراق يقوم بإنتاج أسلحة دمار شامل. إذا لا داعي للاندهاش عند التمعن في أفكار وتصريحات الدبلوماسيين الغربيين. وسوف أستعير عبارات الباحثة **م.خولدينسكايا جولينيشيفا** حفاظًا عل روح النص.

وهناك ملاحظتان إضافيتان. أحيانًا تبدو الباحثة مقتنعة بالموقف الأمريكي ومواقف الدول العظمى في الغرب التي تتعلق بتطبيق المادة السابعة في ميثاق الأمم المتحدة. وتعتقد أنهم يريدون الحصول على قرار شرعي من مجلس الأمن للتدخل العسكري في سوريا. ولكن سرعان ما يتبين أن هذا الموقف له وجهان. فمن ناحية يرغب الغرب في إطلاق يده لتوجيه إنذارات إلى دمشق. ومن ناحية أخرى لا الولايات المتحدة ولا حلفاؤها ترغب في التدخل المباشر في الحرب الأهلية السورية. كان بإمكانهم فعل ذلك في السابق في العراق وصربيا بدون قرار من

مجلس الأمن. والفيتو الروسي والصيني في مجلس الأمن يمثل فرصة لتجنب التدخل المباشر، وفي الوقت نفسه هزيمة حلفاء النظام الدموي في سوريا وتبريرًا لتصرفاتهم أمام عملائهم في الداخل السوري الذين صاغوا سياساتهم معولين على الدعم والتدخل الأمريكي عسكريًّا في سوريا.

وأحيانًا تسترسل الباحثة الشابة في الحديث عن «**نظرية المؤامرة**»، وكان كل ما يحدث في المنطقة هو سيناريو معد مسبقًا من قبل الغرب. وعلى كل فإن الكثيرين يشاركونها وجهة النظر تلك. غير أن هذه الملاحظات لا تقلل من القيمة العلمية الكبيرة للكتاب الذي منحنا مادة أساسية للجزء الثاني من هذا الفصل.

محاولات تنظيم عملية التسوية السياسية

قدمت روسيا أكثر من مرة مقترحات بعقد مؤتمر دولي حول سوريا. وكان الهدف الأساسي هو دفع الأطراف للتوقيع على هدنة والبحث عن حل سياسي للأزمة. فيما فضلت واشنطن اعتماد خطة أخرى تتمثل في استبدال النظام الحالي دون تشاور مع دمشق في تكرار للسيناريو الليبي.

وأصرت روسيا على أن يقرر السوريون أنفسهم مصير بلادهم مع التأكيد على ضرورة إجراء إصلاحات سياسية. كما تمكنت روسيا في 18 يونيو 2012م من التوصل إلى إجماع شكلي حول سوريا في لقاء عقد بالمكسيك بين «**مجموعة الثمانية**». حيث اعترف المشاركون بأن الشعب السوري يجب أن يحصل على فرصة تحديد مصيره ومستقبله بنفسه، أما الانتقال نحو الديمقراطية والنظام السياسي التعددي فيجب أن يتم من قبل السوريين في إطار من السيادة والوحدة الإقليمية للدولة السورية.[101]

وعقد المؤتمر في جينيف في نهاية يونيو 2012م. وشاركت فيه وفود من روسيا والولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وفرنسا وتركيا والعراق وقطر والكويت والاتحاد الأوروبي. واقترحت روسيا دعوة إيران والسعودية غير أن واشنطن رفضت دعوة إيران للمؤتمر. وغاب البلدان عن المؤتمر.

وفي 30 يونيو 2012م تمت الموافقة على وثيقة «المتابعة الدولية لجهود السوريين للخروج من الأزمة». وتضمنت تأسيس حكومة انتقالية بصلاحيات واسعة. وأشار البيان الختامي إلى ضرورة استخدام اللاعبين الدوليين لنفوذهم وتأثيرهم للضغط على الأطراف السورية

لدفعهم للجلوس على مائدة المفاوضات. كما أنه على الأطراف إيقاف العنف المسلح وتبني الإجراءات الإنسانية. ولم يتضمن البيان أي ذكر للبند السابع من ميثاق الأمم المتحدة أو أي شروط مسبقة للبدء في المفاوضات أو عن ضرورة استقالة الرئيس بشار.

وترى م. خودينسكايا جولينيشيفا أن «المجتمع الدولي نجح في صياغة وثيقة يمكن أن تصبح أساسا لبدء العملية السياسية. كما نجح في الاتفاق على صيغة للتعاون حول التسوية السورية».[102]

وفي الواقع بدأت الولايات المتحدة الأمريكية وبعض الدول الأخرى تفسر وثيقة **جينيف** على هواها. وكان الهدف هو البحث عن بدائل لبشار **الأسد** والمحيطين به. اعتقدت البلدان الغربية أنه من الضروري زيادة الضغط على **الأسد**. وأصبح المسئولون الأمريكيون يكررون مقتطفات من البيان تتوافق مع مصالحهم. وقدمت واشنطن النصح للمعارضة باختيار الشخصيات التي يمكن أن تحل محل **الأسد**. وتم تجاهل التوصية التي تدعو إلى أن يقوم السوريون أنفسهم بتقرير مستقبلهم من خلال الجلوس على مائدة المفاوضات.

وقد حددت الحكومة السورية أهدافها على النحو التالي: إنشاء آلية لمراقبة وقف إطلاق النار وتحديد معايير الانتقال السياسي، ورسم خارطة وطنية، وتشكيل حكومة موسعة بمشاركة جميع طوائف المجتمع السوري، وصياغة دستور جديد، وإجراء الانتخابات. ولم يكن من المستبعد فوز البعثيين بالانتخابات إذا ما أجريت في تلك الفترة. وهو ما سبق وحدث في بلدان أخرى مثل أنجولا وموزمبيق.

كان هدفنا هو دفع السوريين للجلوس خلف مائدة المفاوضات.

ولكن تطلب الأمر شهورًا طويلة حتى تستطيع واشنطن إقناع المعارضة أو على الأقل تجهيز "الشخصيات المناسبة" للبدء في الحوار مع الحكومة.

ونشير هنا إلى أنه في 2012م كانت تركيبة المعارضة شديدة التغير. حيث ازداد نفوذ الإسلاميين المتطرفين الذين يرفضون التفاوض مع الحكومة أو أي مفاوضات أو سبل غير عسكرية تفضي إلى إنهاء الصراع. كما كانوا يرفضون أي نصائح غربية.

كان رهان الدول الغربية في البداية على «**الجيش السوري الحر**» القريب من «**التحالف الوطني**». غير أنه وفي منتصف 2014م أصبح نفوذ الجيش السوري الحر مثار شكوك

متزايدة.

وحينها بـــدأ الغرب في الاعتراف بمن أطلق عليهم «**المعارضة المعتدلة**» من الجماعات الإســـلامية وخاصة «**الجبهة الإســـلامية**» التي تدعمها المملكة العربية السعودية. وتم وضع هدف بجمع كل الجماعات الإســـلامية المعتدلة مع السياســـيين العلمانيين الموالين للعرب في كيان واحد وهو «**التحالف الوطني**».

ووضعًـــا في الاعتبـــار الخلافات القائمة بـــين مختلف جماعات المعارضة الســـورية، بدت واشـــنطن عاجزة عن البدء في توريد الأســـلحة للمقاتلين الســـوريين.[103] وقامت المخابرات الأمريكية بإرســـال بعض الذخيرة والعتاد ولكن لم يصل الأمر إلى تقديم مساعدات عسكرية كبيرة وكاملة. كما أن السلاح الذي أرسل إلى المعارضة وقع في النهاية في أيدي الجهاديين.

وقد نشطت باريس في الأحداث السورية، حيث قام وزير الخارجية الفرنسي **ل. فابيوس** بالاعتراف في 21 أغســـطس 2014م بأن باريس قد أمدت المقاتلين بالأسلحة، وأن ذلك قد تم بعلم واشنطن والاتحاد الأوربي. وكانت باريس قد سبق وساعدت مقاتلي ليبيا بالأسلحة وسرعان ما توجب عليها محاربتهم في مالي لاحقًا.

الغـــاز السام

كتبت **م. خودينســـكايا جولينيشـــيفا**: «قامت الدول الغربية بتأهيل مجتمعاتها إلى قبول فكرة أن هناك من سيســـتخدم الأسلحة الكيماوية في الأزمة السورية، وأن السلطات السورية إذا ما شعرت بقرب هزيمتها ستلجأ إلى استخدامها».[104]

وفي 20 أغسطس 2012م صرح الرئيس الأمريكي **أوباما** أن هناك خطًّا أحمر في سوريا ســـيضطر بعده الغرب إلى اســـتخدام القوة.[105] وكان يقصد احتمال اســـتخدام مواد سامة من قبل الســـلطات الســـورية. وبالطبع كانت هناك قناعة مسبقة بأن دمشق ستقدم يومًا ما علـــى هذه الخطوة.[106] وقد طرح **أوباما** هذه الفكرة كما لو أنه ينوب عن المجتمع الدولي.[107] وقد دعمه كل من رئيس الوزراء البريطاني **د. كاميرون** والرئيس الفرنسي **ف. أولاند**.

وربما كانت الدول الغربية تخشـــى بالفعل إقدام سوريا على استخدام الأسلحة الكيميائية، كما فعل **صدام حســـين** أثناء حربه ضد الأكراد. وفي أغسطس 2012م بدا لهم أن النظام

أوشك على الانهيار وأنه على استعداد لارتكاب جريمة لإنقاذ نفسه. غير أن أحلام المعارضة السورية وبعض الداعمين الإقليميين بتدخل الناتو لم تتحقق. وكان من شأن هذا التدخل أن يمهد الطريق نحو تكرار السيناريو الليبي. وبدا تصريح **أوباما** استفزازيا وكأنه محاولة لمساعدة الغرب على اتخاذ إجراءات أكثر عنفًا.

و في 19 مارس 2013م تم بالفعل استخدام مواد سامة ضد منطقة مأهولة بالسكان في خان العسل (**محافظة حلب**). ولكن كيف تم ذلك ومن قام بذلك؟ [108]

وفي 20 مارس بعث وزير الخارجية السوري **وليد المعلم** برسالة إلى الأمين العام للأمم المتحدة طلب فيها بالتحقيق مستقل وللواقعية. وقرر **بان جي مون** إرسال خبراء تابعين لمنظمة حظر الأسلحة الكيماوية ومنظمة الصحة العالمية إلى سوريا. ولكنه عاد خلال 24 ساعة فقط، واتخذ خطوة داعمة لموقف الغرب حين صرح فجأة بضرورة التحقيق في واقعتين أخريين تم خلالهما استخدام السلاح الكيماوي منذ عدة أشهر تلبية لمطالب فرنسية وبريطانية رغم صمتهما في السباق. وبدا وكأن المطالب بتفتيش كل مكان في العراق حتى تحت سرير صدام حسين تتكرر في سوريا.

وفي 21 يونيو 2013م استولى المقاتلون السوريون على منطقة خان العسل لعدة أيام وقتلوا الشهود على الهجوم الكيميائي والأطباء المحليين. وبعد تحرير هذه المنطقة السكنية توصل الخبراء السوريون إلى دلائل على استخدام مادة السارين السامة منخفضة الجودة وقذائف مصنعة يدويًّا.

وفي 21 أغسطس 2013م وهو اليوم الذي وصل فيه خبراء الأمم المتحدة للأسلحة الكيميائية تم استخدام هذه المواد مرة أخرى في الغوطة الشرقية. [109] وسارعت وسائل الإعلام والقادة الغربيون إلى اتهام السلطات السورية بارتكاب هذه الجريمة رغم ثبوت نشر الفيديو عن الهجوم الكيميائي قبل 19 ساعة من الهجوم.

وقد كشف خبراء مختلف المنظمات من خلال تحليل المادة الفيلمية المصورة للهجوم عن وجود الكثير من التزييف. حيث ثبت تكرار وجود طفل صغير مقتول في صورة مأخوذة من عدة مواقع سكنية وفي مواد أخرى.[110] وفي فيديوهات أخرى نرى الأطفال الموتى يحركون أيديهم ويتنفسون. وتوصل أغلب الخبراء المستقلين إلى نتيجة مفادها أن هذه الصور التقطت قبل الهجوم الكيميائي. كما قام سكان الغوطة بنشر صور للقتلى على الفيس بوك. ولكن لم يتعرف أي أحد على أقاربه أو معارفه أو حتى أحد من السكان بينهم. [111]

كان الأمر في حاجة إلى تحقيق مهني مستقل.

ولكن قام وزير الخارجية الأمريكية **ج. كيري** في 26 أغسطس بالإعلان عن قيام نظام **بشار الأسد** بارتكاب «جريمة قتل وحشية ضد سكان مسالمين ونساء وأطفال تصادف وجودهم في المكان».[112] لم يقدم **كيري** أية أدلة أو حقائق بل اكتفى بتصريح لمنظمة «**أطباء بلا حدود**» والذين رفضوا لاحقًا تأكيد تصريحاته.

وقد قدمت واشنطن «أدلتها الخاصة على تورط **بشار الأسد** «في استخدام الغازات السامة. وحيث تم تقديم نص يتضمن الأدلة والبراهين الأمريكية في أربع صفحات نقرأ فيها عبارات من قبيل: «إن واشنطن تتقبل بقدر كبير من الثقة.» أو « ونحن نفترض أن ...».[113] وطالب أعضاء مجلس الشيوخ بتوضيحات ولكن لم يحصلوا على مطلبهم. والجدير بالإشارة امتناع الكاتب الأمريكي **ك.فيليبس** في كتابة «**معركة من أجل سوريا**» عن اتهام النظام السوري باستخدام مواد سامة. [114]

اشتعلت حرب المعلومات في الإنترنت والصحافة. وصرح **باراك أوباما** عن تبديل إستراتيجية التعامل مع الأزمة السورية.[115] وتحدث القادة في الغرب عن «**الخط الأحمر**» الذي تم تجاوزه وأنه يجب الإسراع باتخاذ إجراءات عنيفة. وتقدمت حاملات الطائرات الأمريكية قرب الساحل السوري، وكانت على وشك القيام بتوجيه ضربات جوية ضد سوريا.

وقد حذر **الأخضر الإبراهيمي** الممثل الخاص للأمم المتحدة في سوريا من مغبة توجيه ضربات إلى سوريا، وصرح أنها ستكون في صالح الجماعات الإرهابية، ولكن لم يلتفت أحد لما يقول.

وإذا ما تتبعنا منطق حرب المعلومات فسيبدو الأمر وكأن سوريا تقع تحت سلطة رجل مجنون أو أحمق. لماذا أقدمت دمشق على استخدام الغازات السامة في اليوم الذي وصل فيه خبراء الأسلحة الكيمائية؟ ولم يقدم النظام على تجاوز الخط الأحمر وهو لا يزال يتمتع بالقوة ويسيطر على الموقف؟ بل إن القوات الحكومية كانت تحقق نجاحات واضحة في الحرب. لم يحكم على نفسه بفشل ومصير مجهول؟

في حين كان « **التحالف الوطني**» معنيًّا بوقوع الضربات الجوية لتمهيد الطريق إلى دمشق.[116]

وفجأة صرحت **كارلا دي بونتي** أحد الخبراء الذي لا يمكن اتهامه بالتعاطف مع روسيا

أو نظام **الأســـد** حيث إنها تعمل عضوا في لجنة التحقيق المستقلة في سوريا بأن «المقاتلين في المعارضة الســـورية هم من بادر باستخدام السلاح الكيماوي»[117] وبضغط من الدول الغربية تنصل رئيس اللجنة المستقلة من تصريحات **كارلا دي بونتي**. [118]

«كان الموقف السياســـي والمعلوماتي مشابهًا للفترة التي ســـبقت احتلال أمريكا للعراق. مبرر مفتعل ثم اســـتفزاز ثم حالة من الهســـتيريا في وسائل الإعلام ومنظمات المجتمع المدنى في الغرب وإلقاء التهم جزافاً على طرف دون الآخر وعدم الاهتمام بإجراء تحقيق عادل وشفاف في ظل قناعة تامة بأن الحل هو في اســـتخدام القوة. كانت واشـــنطن تســـتعد لتوجيه ضربة جويـــة ولكن أغلب الأمريكيين كانوا ضد القـــرار. وبعث أكثر من 20 ضابط مخابرات كبار سابقين في أمريكا للرئيس **أوباما** بخطاب ذكروا فيه أن **الأسد** لم يستخدم السلاح الكيماوي في ســـوريا. كان ذلك عملاً اســـتفزازيًّا من قبل المسلحين السوريين. ويرى هؤلاء الضباط أن رئيس المخابرات الأمريكية **ج. بريـنان** يكرر نفس الخداع الذي مورس في العراق «عندما يقوم بتضليل الكونجرس ووسائل الإعلام والرأي العام العالمي ورئيس الدولة»[119].

فمن إذًا كان يرغب في التدخل الأمريكي؟ إنه السيناتور **ماكين**.[120] فالسنوات التي قضاها في الأســـر في فيتنام ربما كان لها تأثيرها على نفســـيته وحولته إلى عدو للصينيين والشيوعيين والفيتناميين والروس، ولكل من لا يؤيد الولايات المتحدة الأمريكية. أما أكثر المتشددين فكان الرئيس الفرنســـي «الاشـــتراكي»[121] على الرغم من أن فرنسا قد ضلت طريقها في ليبيا ثم في مالي والجزائر. أما القادة المحليون فبدوا لا يعرفون كيف يتخذون قرارهم، وما السبب في إحجام واشنطن عن التداخل العسكري بعد عقود من استعراض العضلات في بقاع مختلفة من العالم؟

أصبحـــت الولايات المتحدة وحلفاؤها ضحايا للحملـــة الدعائية التي قاموا بها. لم يرغب الأمريكان في التدخل المباشـــر في الحرب الأهلية الســـورية ولكنهم في الوقت نفسه تخوفوا من ظهروهم كمن لا يحفظ كلمته.[122] وفي نهاية أغســـطس 2013 وافق البرلمان البريطاني على قرار برفض استخدام القوة ضد سوريا. [123]

وفي الوقت نفســـه وبعد أن اتفق مع **الأسد** ألقى الرئيس **بوتين** بطوق النجاة إلى واشنطن عندما اقترح تدمير كل الترسانة الكيماوية السورية.

كان من الواضح أن هذا الحل يرضي واشـــنطن، كما أنه يرضي إســـرائيل بدرجة أكبر. فالأسلحة الكيماوية ظهرت في سوريا ردًّا على إنتاج إسرائيل للقنبلة النووية.

وفي 12 سبتمبر 2013م سلم السوريون الأمين العام للأمم المتحدة المرسوم الرئاسي بموافقة سوريا على الانضمام إلى معاهدة حظر الأسلحة الكيماوية، وعن استعدادها للبدء في ذلك فورًا.

وخلال يومين وفي 14 سبتمبر وقَّعت **موسكو وواشنطن** اتفاقًا إطاريًّا لتدمير الأسلحة الكيميائية السورية.[124]

وقد حدد المجلس التنفيذي لمنظمة حظر الأسلحة الكيماوية الإجراءات الخاصة بتدمير الترسانة الكيماوية السورية وتوثيق ذلك. وأصدر مجلس الأمن قراره رقم 2118 الذي يدعم هذا الحل.

وانتهت عملية إخلاء الترسانة الكيماوية من سوريا في 23 يونيو 2014م. حيث تم نقل 1200 طن من المواد التي يمكن استخدامها لتصنيع السلاح الكيماوي بما فيها 20 طن من غاز الخردل. كما تم تدمير 10 أطنان من مادة إيزوبروبانول الكيميائية، حيث قام بذلك السوريون بالاتفاق مع منظمة حظر الأسلحة الكيميائية في مواقع تخزينها.

«ويعد التوصل إلى اتفاق لتدمير الترسانة الكيماوية السورية نصرًا دبلوماسيًّا روسيًّا. حيث سمح ذلك بإنقاذ سوريا من ضربات جوية وشيكة. كما أنه وللمرة الأولى بعد سنوات طويلة من فرض واشنطن لسياساتها وتدخلها من طرف واحد يسود منطق الوعي بضرورة البحث عن حل وسط بقضايا الدولية المعقدة والعمل الجماعي لتحقيق الانفراجة الدبلوماسية».[125]

غير أن أزمة أوكرانيا والقرم، جمدت لفترة كل أشكال التعاون بين واشنطن وروسيا. وسنتناول ذلك لاحقًا.

جنيف ـ 2 محاولة لإرساء حوار بين السوريين

يطلق على المؤتمر الدولي حول سوريا والذي يضم الأطراف السورية اسم «جنيف – 2». وقد استغرق الأمر عامًا ونصفًا منذ الموافقة على وثيقة **جينيف** في 30 يونيو 2012 حتى يتم إطلاق العملية السياسية.

وكان من أهم أسباب التأخر هو اختيار ممثلي المعارضة في المؤتمر. فلتحقيق أي اتفاقات يتوجب اختيار وفد يمثل بشكل شامل جميع أطياف المعارضة السياسية السورية. وفي السابع

من مايو 2013 اتفقت روسيا والولايات المتحدة الأمريكية على الإجراءات للتحضير لمؤتمر سوريا. [126] وتم الاتفاق على توزيع الالتزامات حيث تكفلت روسيا بإقناع دمشق بإرسال وفد للتفاوض في حين تتولى واشنطن الاتفاق مع المعارضة.[127]

ونشـــير هنا إلى أن المعارضة الإســـلامية لم تكن مطروحة في تلك الفترة بل كان الحديث يـــدور عن فصائل وقـــوى معارضة مختلفة (وإن كان أغلبها ذا صبغة إســـلامية). كان هناك «**الجيش السوري الحر**»، وكان «**التحالف الوطني**» قد تم تشكيله في الدوحة. كان موقف موسكو قويًّا كونها أجرت مفاوضات مع كل جماعات المعارضة بما فيها «**التحالف الوطني**» في حين لم يكن لدى واشنطن أي اتصالات مع الحكومة السورية.[128]

وقد تألف «**التحالف الوطني**» من المهاجرين الذين لم تكن لهم قاعدة جماهيرية واجتماعية داخل ســـوريا. كما لم يحظ التحالف باعتراف الكثير من الفصائل المســـلحة السورية؛ ولذا لم تكـــن هناك ضمانات بتنفيذ القرارات المتفق عليها ســـواء وقف إطـــلاق النار أو توصيل المساعدات الإنسانية أو مكافحة الإرهاب.[129]

وتلبية لطلب واشـــنطن تم تأجيل انعقاد المؤتمر 6 مرات. وكان المطلب الأساســـي المسبق للتحالف يتمثل في تخلي **بشـــار** عن الحكم. كان التحالف يرغب في إعادة النظر في جدول الأعمال المقترح من قبل واشـــنطن وموســـكو والتركيز على استسلام دمشق وتأسيس سلطة انتقالية في البلاد.

وأعلنت واشنطن أن «**التحالف الوطني**» يمثل مظلة مشتركة تضم كافة أطياف المعارضة الســـورية. ولكن لم يكن ذلك مقبولاً من قبل كثير من الفصائل المعارضة في داخل ســـوريا. وكانت نقاط الخلاف الأساســـية تتمثل في تحديد مصير **الأســـد** وليـــس ذلك فقط بل وفي الدعوات التي يطلقها التحالف لقصف سوريا على غرار السيناريو الليبي. فضلاً عن ذلك كان تمويل التحالف من الخارج؛ ولذا فقد كانت قراراته تفرض من قبل الداعمين الخارجيين.[130]

وقام عدد من ممثلي المعارضة في الداخل بصياغة خطة للتحول السياســـي في سوريا. غير أن الأمريكيـــين لم يضموا أيًّا منهم إلى الوفد ووصفوهم أنهم «عرائس خشـــبية يحركها النظام السوري».[131]

وفي سعيه لتغيير النظام في سوريا قام الغرب باستخدام إستراتيجيات تم تجريبها في السابق. فقد تمحورت سياسته حول فكرة واحدة وهي «فقدان **الأسد** لشرعيته» وأن «**التحالف الوطني**» هو الممثل الشرعي للشعب السوري».[132]

وعلى الرغم من تأييد **الأخضر الإبراهيمي** لمشاركة عدد كبير من فصائل المعارضة السورية ومطالبة الأحزاب السورية الأمين العام للأمم المتحدة بالنظر في مشاركتهم في الحوار إلا أن الولايات المتحدة قامت بتشكيل الوفد من أعضاء «**التحالف الوطني**» وحده. وقبيل المؤتمر حدث شقاق بين أعضائه. حيث غادرت «**المجموعة الموالية لقطر**» داخل التحالف الاجتماعات بطريقة لم تخلُ من الاستعراض، في حين رفض تكتل «**المجلس الوطني الانتقالي**» بزعامة **جورج صبرا** المشاركة في مباحثات «**جنيف – 2**».[133]

وهكذا لم تحظَ المعارضة بتمثيل عادل لها في المؤتمر. حيث تم تجاهل المعارضة في الداخل السوري التي تمثلها للجنة التنسيقية الوطنية، وحزب الاتحاد الديمقراطي الكردستاني والجبهة الشعبية وغيرها ممن دافع ودعم النضال السياسي بالسبل السلمية، مع منحهم حقوقًا ديمقراطية أوسع، بوصفهم يمثلون المعارضة الرسمية.

وقد اتفقت روسيا والولايات المتحدة الأمريكية والأمم المتحدة على تفاصيل إجراء وتنظيم المؤتمر.

وشارك في المؤتمر 38 دولة وعدد من المنظمات الدولية. ورأت **موسكو** أنه من المنطقي دعوة إيران. وقام الأمين العام للأمم المتحدة بتوجيه الدعوة إلى الإيرانيين، ولكن سرعان ما تراجع بسبب ضغوط واشنطن.[134] وبدا ذلك تصرفًا غير لائقا وإهانة لإيران وكشف مرة أخرى تبعية الأمم المتحدة لواشنطن.

ورغم ذلك افتتح المؤتمر في 22 يناير 2014 بمدينة **مونتريو** السويسرية. واتسمت خطابات المشاركة بالطابع العاطفي. وتحدث وزير الخارجية السوري **وليد المعلم** عن الجرائم الإرهابيين في حين اتهم رئيس «**التحالف الوطني**» النظام السوري بكل الجرائم والمآسي في سوريا. ودفع عددًا من البلدان الغربية الأزمة نحو الاشتعال. في حين دعمت روسيا اتخاذ خطوات بنَّاءة يمكن أن تسمح للشعب السوري أن يقرر مصيره بنفسه. ومن وجهة النظر الروسية يجب على اللاعبين الخارجيين تشجيع السوريين على تحقيق التوافق والتوقف عن تقرير اتفاقات نهائية مسبقة وعن اتخاذ أي خطوات يمكن أن تقوض العملية السياسية.[135]

وبعـد افتتاح المؤتمر في **جينيف** جرت مشـاورات اسـتمرت لجولتـين (25-31 يناير و10-15 فبراير 2014). ولم يتوصل الطرفان إلى اتفاق.

وبالطبع اتهمت واشـنطن دمشق الرسمية بالمسئولية عن فشل المباحثات، في حين اتهمت روسيا الولايات المتحدة وحلفاءها بذلك.

غير أنه كانت هناك بعض النقاط الايجابية. فقد تم الاتفاق حول بعض القضايا الإنسانية، ورأت **موسكو** أن مؤتمر «**جينيف– 2**» يؤكد نجاح الدبلوماسية الروسية.

وأكرر هنا أن هذا المؤتمر قد جرى تنظيمه في ذروة أزمة القرم مع أوكرانيا، وفي حين لم تكن المعارضة السورية قد حققت تفوقًا على الأرض بعد.

وفي 3 يونيو 2014م ولأول مرة في تاريخ سـوريا جرت انتخابات رئاسية تعددية شارك فيها 11,5 مليون سوري، بلغت نسبة المشاركة أكثر من 73 % وفاز **الأسد** بحصوله على 88.7 % من الأصوات.[136] وشـارك في الانتخابـات مراقبون من بوليفيا والإكوادور والهند وكوبا والعراق وإيران ونيكاراجوا وروسيا وجنوب إفريقيا وفنزويلا. وأعلن مندوب إيران نيابة عن أعضاء لجنة المراقبين بأن الانتخابات كانت «**حرة وشـفافة ونزيهة**». فيما وصفت واشنطن والاتحاد الأوروبي ودول الخليج الانتخابات بغير الشرعية وبالمسرحية الهزلية.[137]

مجلس الأمن ـ 4 فيتو والقليل من القرارات المشتركة

أضحت الأمم المتحدة ساحة للصراع السياسي والدبلوماسي حول الأزمة السورية. كانت الصعوبة التي تواجهها روسيا هي نفسها التي كانت قائمة في الحقبة السوفيتية التي تتمثل في أن الولايات المتحدة وحلفاءها دائما يمتلكون الأغلبية شكليًّا وهو ما ضمن تمريرًا لسياستها سواء عن قناعة أو تحت ضغط. هذا ما حدث في الجمعية العامة للأمم المتحدة وفي مجلس حقوق الإنسان وغيره من الهيئات. فقط في مجلس الأمن وحده كانت روسيا والصين لهما حق الفيتو أي حق الاعتراض على القرارات التي تهدد مصالحهما أو تعتبر في رأيهما خرقًا للسلم والأمن الدوليين ولقواعد النظام الدولي.

واستخدمت روسيا والصين حق الفيتو أربع مرات (في الفترة بين 2011-2015) ضد مشـروعات قرارات غربية لاستخدام البند السابع من ميثاق الأمم المتحدة بالطبع ضد النظام

الحاكم في سـوريا وهو ما يمنح المبرر القانوني للتدخل العسـكري في سوريا دعمًا للمعارضة. وتمثلـت ازدواجية الغـرب في رغبتهم في إطلاق أيديهم في الأزمة السـورية واختيار التوقيت والوسائل للقيام بعمليات عسكرية ضد نظام **الأسد** وفي الوقت نفسه رغبتهم في التدخل في الحرب الأهلية.

وكلما اشتعلت الفوضى أكثر في ليبيا على مرأى ومسمع منهم نتيجة للتدخل المباشر من حلف الناتو وخلع نظام **القذافي** كلما خفتت رغبة واشنطن وحلفائها في التدخل المباشر في حرب جديدة؛ ولذا فقد عبَّر السياسـيون الغربيون عن رضاهم باستخدام روسيا والصين حق الفيتو في مجلس الأمن. كما اسـتقبل الغرب برضا كامل الاتفاق الروسـي الأمريكي بإخلاء سـوريا من الأسـلحة الكيماوية. كما صوت مجلس الأمن بالكامل دعمًا لهذا القرار. الا أن الغـرب ظل يروج إعلاميًّا لقيام روسـيا بدعم «**الدكتاتور السـفاح**» وأنها تتجاهل مطالب المجتمع الدولي، وكانت هذه النغمة تشتد كلما استخدمت روسيا أو الصين حق الفيتو.

ونورد هنا أمثلة لآراء بعض الدبلوماسيين الغربيين.

فقد صرَّح المندوب الدائم لفرنسـا في الأمم المتحدة **ج. آرو**: «يجب أن نشـعر بالخجل أمام التاريخ، فبهذا التصرف انضمت هاتان الدولتان إلى نظام يقتل شعبه. وقرر أن وجودهما في الشرق الأوسط مرتبط بمصير **بشار الأسد**. وسوف يكون مصير تواجدهم في المنطقة مماثلاً لمصير **الأسد** نفسه» [138].

كما صرَّح المندوب البريطاني الدائم في الأمم المتحدة **ل. جرانت**: «إن روسيا والصين لم يلتزما بمسئوليتهما كأعضاء دائمين في مجلس الأمن. وقاما من جديد بإعاقة محاولات ومساعي أغلـب أعضاء المجلس والذين يحظون بدعم المجتمع الـدولي. وما تقوم بها الدولتان هو حماية لنظام غاشم». [139]

وأذكر هنا أنه في أثناء الجدل الدائر في مجلس الأمن حول ليبيا صرَّح **جرانت**: «إن الموقف في ليبيا واضح تمامًا. فقد فقدَ النظام الغاشـم هناك شـرعيته، وبدأ في استخدام السلاح ضد المدنيين، وأشـعل الحرب ضده. والنظام هناك يصرح بقدرته وعزمه على مواصلة تتبع والقضاء على الليبيين الذين يرغبون في أن يصبحوا أصحاب قرار» [140].

وفي سبتمبر 2016م وبعد خمس سنوات تقريبًا من خلع **القذافي** أصدرت لجنة الشؤون الخارجية بالبرلمان البريطاني تقريرًا اعتمد على مقابلة صحفية مع بعض رجال الدولة البريطانيين أصحاب القرار واستعراض لوثائق وأبحاث ميدانية عن قارة إفريقيا. ويشير التقرير إلى أن الحرب الليبية قامت على كذبة وأنها أدت إلى انهيار وتدمير الدولة وانتشـــار الإرهاب. وكانت هناك مبالغة شـــديدة في تصوير التهديد الذي مثلته القوات الحكومية الليبية على السكان المدنيين. «اســـتولى نظام **القذافي** على مدن الثوار في فبراير 2011م دون التعرض بشكل خاص إلى المدنيـــين». [141] وأعلنت منظمة العفو الدوليـــة في تقريرها عن أحداث يونيو 2011م أنها لم يتسنَّ لها التأكد من حدث خرق جماعي لحقوق الإنسان من جانب قوات النظام الليبي. غير أنهـــا عثرت على بعض الأدلة التي تثبت أن الثوار في بنغازي قد قدموا تصريحات كاذبة وأدلة مفبركة.

كما أكد التقرير أن إرهابيين مرتبطين بتنظيم «**القاعدة**» قد شـــاركوا في الثورة في بنغازي في مارس 2011م.

وما يثـــير الاهتمام هو النتائج التي ســـتتوصل إليها اللجنة الجديـــدة للعلاقات الخارجية بالبرلمان البريطاني حول الأحداث في سوريا وما سيقوله السيد **جرانت** حينها.

وقد كان له بالفعل تصريح حول ســـوريا قال فيه: «إن الشـــعب السوري يدافع بشجاعة عن حقوقه المشتركة على مدى عشرة أشهر، أما النظام السوري فقد كان رده طوال هذه المدة بالقمع والقتل ضد مواطنيه». [142]

كمـــا أدلت المندوبة الأمريكية الدائمة في مجلس الأمـــن **كوندااليزا رايس** بتصريح يحمل نفس المضمون: «الأمر يختلف عن ليبيا. فسوريا طعم رخيص لمن يريد أن يبيع السلاح للنظام السوري ويقف في الوقت نفسه ضد الشعب السوري». [143]

ونؤكد هنا أن هذا الخطاب يذكرنا بالحرب الباردة، وقد جاء قبل أحداث أوكرانيا والقرم.

وسوف نعود لاحقًا إلى أساليب الحرب المعلوماتية.

وعلى الرغـــم من اختلاف التعبيرات، فإن مضمون القـــرارات المقترحة من الدول الغربية والتي اعترضت عليها الصين وروسيا كان يتلخص في توجيه التهم إلى النظام السوري بارتكاب جميع الآثام والجرائم مع تجاهل تحميل المعارضة أية مسئولية وتوجيه إنذارات للنظام في دمشق وتهديده بالتدخل العسكري على غرار ما حدث في ليبيا.

وتشـــير م. **خولدينســـكايا جولينيشـــيفا** أن أول قرار صدر قد صيغ تحت غطاء حقوق الإنســـان (أكتوبر 2011). غير أن روسيا والصين رفضتا تأييد هذه الوثيقة ومعهما كل من البرازيل والهند ولبنان وجنوب إفريقيا.

وفي 15 ديســـمبر 2011م اقترحت روســـيا على مجلس الأمن الموافقة على مشروع قرار يدين أي عنف من جانب أي طرف بما فيها الاستخدام غير المتوازن للقوة من قبل السلطات السورية». غير أن مشروع القرار تحدث أيضًا عن الإمداد غير الشرعي بالسلاح إلى الجماعات المسلحة في سوريا. ورفضت الدول الغربية تأييد المقترح. [144]

أما المشروع الثاني (فبراير 2012) فقد دعى إلى الحل العسكري. وتم توجيه الاتهام بطبيعة الحال إلى النظام الســـوري مع تجاهل جرائم الإرهابيين. وتم التهديد بتطبيق إجراءات لاحقة (استخدام القوة) في حالة عدم التزام دمشق بتنفيذ القرار. [145]

ورفض الدبلوماسيون الغربيون المقترح الروسي بإدراج تعديل على القرار يدعو المعارضة إلى التنصل من الراديكاليين ومطالبة الجماعات المسلحة بعدم الهجوم على الأحياء السكنية.[146] وربما كان الغرب يعتقد أن نظام **الأسد** سينهار قريبًا؛ ولذا فلم يغضب كثيراً من الفيتو الروسي الصيني.

وكانت روسيا في تلك الفترة تكثف بحثها عن تسوية سلمية. وفي بداية فبراير 2012 قام وزير الخارجية الروســـي **سيرجي لافروف** ومدير جهاز المخبرات الخارجية **ميخائيل فراتكوف** بزيارة إلى دمشـــق التقيا خلالها مع الرئيس **الأسد**. وصرح الوفد أن **الأسد** يؤيد الإصلاحات في الدستور وإجراء الانتخابات. غير أن **لافروف** و**فراتكوف** أعلنا أن سوريا وحدها بمقدورها تغيير مصير الشـــعب الســـوري، وبدون تدخل خارجي».[147] وتجاهل شركاؤنا في الغرب هذه التصريحات.

أما الاقتراح الثالث (يونيو 2012م) فكان حقوقيًّا وسياسيًّا. حيث تمت المطالبة بتطبيق البند الســـابع من ميثاق الأمم المتحدة بشـــكل مقنع ومســـتتر حينما تضمن مشروع القرار المطالبة بتنفيذ خطة السلام المقترحة من المبعوث الخاص للأمم المتحدة إلى سوريا كوفي عنان. كان على دمشـــق إيقاف العمليات العســـكرية، واتهمت مسبقًا بأنها لم تقم بذلك. كما لم يتـــم تحديد التزامات المعارضة على نحو دقيق. تم توجيه تهديدات بفرض عقوبات ضد النظام الســـوري وحده. ونص القرار أنه في حال لم تلتزم ســـوريا بالتنفيذ خلال عشـــرة أيام ســـيتم

استخدام القوة لتنفيذ القرار بما في ذلك البند السابع من ميثاق الأمم المتحدة. وفي 19 يوليو استخدمت روسيا والصين حق الفيتو ضد مشروع القرار. كما انضم إليهما كل من باكستان وجنوب إفريقيا.

وتم استخدام حق الفيتو مرة رابعة في مايو 2014م. حيث عارضت موسكو مشروع قرار فرنسي لنقل الملف السوري إلى المحكمة الجنائية الدولية. كانت لدى روسيا شكوك حول حيادية المحكمة. ففي ليبيا لم يتم توجيه أي تهمة لأي جهادي رغم أن الكثيرين منهم كان غارقًا في الدماء من رأسه إلى أخمص قدميه. ولم يكن من الممكن في الواقع محاكمة أي من المقاتلين السوريين نظرًا لغياب قيادة موحدة لهم.

غير أنه كانت هناك عدة جوانب ايجابية في عمل الأمم المتحدة. حيث نجحت في إصدار قرارات غير مسيسة ساعدت في حل القضايا لإنسانية. وفي أثناء تقديم هذه المساعدات حاولت السلطات السورية الاتفاق مع المعارضة المسلحة لوقف إطلاق النار بشكل مؤقت. وقد دعم مجلس الأمن اتفاقات الهدنة المؤقتة تلك بعد إلحاح شديد من الجانب الروسي.[148]

كما تقدَّمت روسيا بمبادرة تم الموافقة عليها والموافقة على تصريح رئيس مجلس الأمن بعدم السماح بعقد صفقات بيع النفط من الأراضي الواقعة تحت سيطرة المعارضة المسلحة.

كما كان صدور قرار مجلس الأمن رقم 2170 (أغسطس 2014) و2178 (سبتمبر 2014) و2199 (فبراير 2015) من منجزات التعاون غير المسيس بين الدول على أرضية مكافحة الإرهاب وضرورة المواجهة الجماعية لهذا التهديد. وتتضمن الوثائق اعترافًا بقدرة الإرهاب على الانتشار عبر الحدود وإدانة للجرائم التي تقوم بها الجماعات المسلحة في سوريا والعراق. والمهم هنا هي مطالبة جميع الدول باتخاذ إجراءات لعدم السماح بتنامي التهديد الإرهابي بما في ذلك حظر التمويل والتجارة في النفط ومنتجاته مع **داعش** و**جبهة النصرة** وكذا الجوانب الإيديولوجية (مكافحة التحريض على التطرف والعنف) واتخاذ ما يلزم من إجراءات على المستوى الوطني. كما تشجع القرارات على تعميق التعاون الدولي والإقليمي بين الدول في مجال مكافحة الإرهاب بما في ذلك تبادل المعلومات عن المسلحين الإرهابيين. وقد صدرت معظم هذه القرارات بمبادرة أو بدعم روسي.

وعلى مدى سنوات ثلاث، رفض شركاء روسيا إجراء مناقشات وحوار واتخاذ قرارات تدعو إلى حرب مشتركة ضد الإرهاب. وعندما تحول الإرهاب إلى واقع بدأ التفاهم يحدث

بين روسيا والشركاء الغربيين. لم يحدث شقاق كامل داخل أروقة مجلس الأمن رغم أن الأجواء السائدة كانت تذكرنا بالحرب الباردة وذلك بسبب الأحداث في أوكرانيا والقرم.

شيطنة بشار الأسد. مجلس حقوق الإنسان ووسائل الإعلام الغربية

كان مجلس حقوق الإنسان الذي يتشكل في الأساس من ممثلي الدول الغربية وحلفائها، يعمل لتحقيق مصالح هذه الدول. كان من الصعب أن تتوقع منه اتخاذ قرارات موضوعية. حدث ذلك أثناء الأزمة الليبية ومن بعدها السورية.

كان نظام **بشار** هو المتهم والمذنب دومًا. اتخذ المجلس أكثر من مرة قرارات تدين السلطات الرسمية في سوريا قبل أن يتم إجراء أي تحقيق أو محاولة معرفة المذنب الحقيقي. لم يكن من المجدي للبلدان الغربية إلقاء الضوء على جرائم المعارضة المسلحة. ويكفي أن نتذكر عمليات القتل التي وقعت في قرية القصير في يونيو 2013م. حينها قامت الدول الغربية ودول الخليج وتركيا أعداء دمشق باتهام النظام بارتكاب هذه الجرائم. ولكن وبعد عام من التحقيقات تبين أن الإسلاميين هم من قاموا بهذه الجرائم وعندها توقف المجلس عن مناقشه القضية، وكذا وسائل الإعلام الغربية.

وعادة ما كانت الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاؤها يرفضون الحديث عن خرق المعارضة المسلحة لحقوق الإنسان ويمتنعون عن تقديم توصيف موضوعي للأعمال التي تقوم بها هذه الجماعات. ونقصد هنا الجرائم الوحشية في حق السكان المسالمين وإعدام رجال الدين وتهجير المسيحيين والأكراد واليزيديين وغيرهم وإنشاء أسواق للعبيد وقتل العاملين ضمن طواقم المنظمات الإنسانية التابعة للأمم المتحدة. ولكن المتهم دائمًا كان النظام وحده.

ثم تم تسوية الأمر. حيث تضمنت تصريحات المفوض السامي للأمم المتحدة لحقوق الإنسان (قام بإعداد تصريحات المفوض السامي موظفون غربيون يعملون في سكرتارية الأمم المتحدة) عبارات من قبيل: « **القلق البالغ**» و« **الأعمال القمعية التي يقوم بها النظام السوري**». وقام أعضاء مجلس حقوق الإنسان الذين أعربوا عن قلقهم البالغ من الأحداث بمطالبة المجلس باتخاذ إجراءات عاجلة لوقف «**السفاح الدكتاتور**» عند حده. وفرض هؤلاء على المجلس اتخاذ القرار الذي يرونه ضروريًّا ومن ثم اعتمدوه في الجمعية العامة للأمم المتحدة. وعلى الفور قام «**أصدقاء سوريا**» «باقتحام» مجلس الأمن. وفي الوقت نفسه أخذت وسائل

الإعلام الغربية توحى للمشاهدين والقراء أن روسيا والصين وحدهما يعارضان القرار ضد رغبة دول العالم أجمع، وكأن العالم كله يؤيد القرار فيما تعارضه كل من روسيا والصين.

وكتبت **م. خودينسكايا جولينشيفا**: « أكَّدت روسيا أكثر من مرة على عدم نجاعة، وربما الخطر الذي يمثله نهج مجلس حقوق الإنسان في الأمم المتحدة حينما يصبح انتقائيًّا في انتقاد بلدان بعينها في حين يتجاهل خروقات حقوق الإنسان في بلدان أخرى. غير أنه كان من بين أعضاء المجلس دول تسعى إلى تحويله إلى عصا سياسية لعزل ومعاقبة بلدان بعينها. وفي السياق السوري كان الحديث الدائر ليس عن الدفاع عن حقوق الإنسان بل صبغ أهداف سياسية بصبغة حقوقية. لم يؤد أي قرار للمجلس في إحداث تحسن في حالة حقوق الإنسان في سوريا ولم يكن أي من قراراته موجهًا لدعم المفاوضات السورية السورية أو إلى توحيد المجتمع الدولي على أرضية إيقاف أفعال الإرهابيين. وقد أظهر تداول المجلس للموضوع السوري أن المجلس قد تحول من آلية للدفاع عن حقوق الإنسان إلى منبر لتشويه الأنظمة المعادية. وصاحب ذلك حمله هستيرية من قِبل وسائل الإعلام وضغوط من قبل مجلس الأمن وعقوبات اقتصادية من طرف واحد وتقديم الدعم المالي وبالسلاح للثوار وهي الإجراءات التي تعتبرها الولايات المتحدة وحلفاؤها قادرة على تحقيق النتيجة المرجوة وهي تغيير النظام السوري تحت غطاء إنساني حقوقي».[149]

وتجدر الإشارة إلى أن حديثنا هنا يتناول الأحداث في بداية الصراع في سوريا. وكثيراً ما تغيرت تقييمات المفوض السامي لحقوق الإنسان في الأمم المتحدة للأحداث في سوريا، بما في ذلك أثناء عمل الرئيس الجديد لمجلس حقوق الإنسان **ز. بن رعد الحسيني** الذي لم يرغب في إغماض عينيه عن تنامي قوة المتطرفين والمجموعات المعارضة للحكومة في سوريا.

وذكرت **م. خودينسكايا جولينيشيفا** أن «نشاط وسائل الإعلام التابعة للدول التي تطالب بعزل النظام السوري كان يتم وفق خطة معدة مسبقًا وبدقة. وبنفس الطريقة الهستيرية والعدوانية والانحياز الكامل تناولت أحداث يوغوسلافيا في عام 1999م والعراق في عام 2003م وليبيا في 2011م. وتذكرنا حرب المعلومات ضد الحكومة السورية بما حدث في ليبيا».[150]

ويؤدي بنا التسلسل المنطقي للأحداث إلى ما يلي: « إن الشعب يرغب في الديمقراطية فيما يقتل النظام الدموي شعبه الذي يرغب في الديمقراطية. ويجب تقديم المساعدة لهذا الشعب

لتحقيق الديمقراطية وإن روسيا «**غير الديمقراطية**» تقف أمام المجتمع الدولي المتحضر في مساعيه لعزل هذا الطاغية».[151]

وتمت تعبئة وسائل الإعلام لإثبات أن **الأسد** يعتبر «رئيسًا غير شرعيٍّ» ويجب التخلص منه في أسرع وقت. ولم يكن بمقدور الكثيرين طرح وجهة نظر مخالفة رغم فوز **الأسد** في الانتخابات التعددية التي أجريت في 29 إبريل 2014م.

أصبح هناك شخصنة للصراع مع تكرار مقولة « **إن الأسد يجب أن يرحل**»، وأن ذلك سيحل كل المشكلات. فليرحل «**الرئيس غير الشرعي**» وبعدها سينتهي كل شيء وسيتوقف نزيف الدم، وستنتصر الديمقراطية». وعندما كنا نطرح سؤال: وما بديل **الأسد؟** لم نتلق إجابة شافية من أحد. في حين قامت الدول الغربية باتهام روسيا بسبب رفضها التدخل الخارجي بأنها دولة تقف أمام مساعي الشعوب نحو الديمقراطية وحملوها مسئولية كل ما يجري في سوريا من مآسٍ.[152] وانتشرت عقيدة مغلوطة وكان العالم كله والمجتمع الدولي بأكمله يدعم المعارضة في حينٍ تقف روسيا مفردها معزولة تدعم الديكتاتور السَّفاح.

وتمت صناعة واقع بديل في الفضاء الإعلامي أو قل واقع مستعار، كان يتم فيه تجاهل مستمر لأحداث بعينها فيما يتم التركيز على أحداث أخرى أو إبراز حقائق مصطنعة يتم دعمها بأخرى مزيفة. وقد استقال بعض صحفيي الجزيرة احتجاجًا على فبركة المشاهد.

لعبت وسائل الإعلام دورًا كبيرًا في بث الكراهية بين العرب ضد **بشار الأسد**. غير أنه سرعان ما شهدت أروقة الجامعة العربية حالة من الشقاق. حيث رفضت كل من الجزائر ومصر والعراق ولبنان والسودان دعم التوجه للسماح بوفد آخر غير الحكومة الرسمية في الجامعة.[153]

وتحول السكان المسلمون إلى مقاتلين يمسكون السلاح «ليدافعوا عن أنفسهم من النظام». أما العمليات الإرهابية فيقوم بها «أناس فقدوا الأمل وليس لديهم خيار آخر للنضال ضد النظام».[154]

وعندما اتضح للجميع حقيقة هؤلاء المقاتلين المعارضين أخذت وسائل الإعلام تقسمهم إلى «**جيد**» و «**سيئ**». حيث ينتمي «**الجيش السوري الحر**» و «**الجبهة الإسلامية**» للصنف الأول فيما تنتمي «**جبهة النصرة**» و «**داعش**» للصنف الثاني.[155]

ورغم أن السياسيين الغربيين هم من أسهم في صياغة الخطاب الإعلامي إلا أنهم لاحقًا أصبحوا تابعين لها. حيث توجب عليهم الاستمرار في نفس النهج حتى ولو كان الواقع يحتم إعادة النظر في الأحداث.

الإرهاب. «المتطرفون» و «المعتدلون»

وعندما دار الحديث عن العمليات الإرهابية ضد النظام أصبح الغرب يستخدم أدلة وحججًا وكانت التفجيرات تتم عن طريق أناس فقدوا الأمل في الحياة ولم يعد لديهم أي وسيلة للنضال ضد النظام سوى ذلك. «كانت سياسة المعايير المزدوجة تلك صادمة حيث كان الدول الغربية الأعضاء في مجلس الأمن توافق أحيانًا على إدانة الأعمال الإرهابية في العراق وفي الوقت نفسه ترفض إصدار أي تصريح عن سوريا حيث معظم الضحايا من النساء والأطفال».[156]

ومع الوقت أخذت واشنطن تقسم المقاتلين إلى «**معتدل**» و»**متطرف**» وإلى «جيد» و"**سيئ**".

وفي نهاية 2013م اتضح أن «**الجيش السوري الحر**» قد فقد قوته وتوارى إلى الظل. كان الجيش يتكون من عدد كبير من الفصائل أغلبهم من الإسلاميين. وعندها أخذت واشنطن تراهن على «**الجبهة الإسلامية**» بوصفها أكثر التنظيمات المعتدلة بين المعارضة.[157]

وقد تأسس تنظيم « **الجبهة الإسلامية**» في نوفمبر 2013م وفقًا لرأي الكثير من الخبراء بهدف إضعاف قوة التنظيمات الموالية لكل من قطر وتركيا.[158] وتم دعم الجبهة لتنافس **داعش**. ودارت معارك بينهما للسيطرة على النفط ومناطق النفوذ والحصول على المعونات الأجنبية. وهناك تطابق بين أيدولوجية «**الجبهة الإسلامية**» و»**جبهة النصرة**». ولم تخف «**الجبهة الإسلامية**» رفضها للتفاوض مع الحكومة.

«وفي أثناء الاتصالات مع الزملاء الأمريكيين حذر الدبلوماسيون الروس أكثر من مرة من مخاطر منطق تصنيف الإرهابيين إلى « **جيد**» و «**سيئ**» وأن الغرب ليس في حاجة لمحاربة **بشار الأسد** بل إلى التفكير في كيفية الوقوف ضد تحول الموقف إلى الراديكالية. وبمبادرة من الرئيس **فلاديمير بوتين** أثناء قمة «**الثماني الكبار**» 17-18 يونيو 2013م تم التوصل إلى صياغة تدعو الحكومة السورية والمعارضة إلى التوحد ضد الإرهابيين.[159] وبفضل جهود

الدبلوماسيين الروس تم تضمين قرار مجلس الأمن وغيره من الهيئات الأممية إدانات واضحة للإرهاب، ومن ثم اتخاذ قرارات قوية داخل المجلس في مجال مكافحة الإرهاب».[160]

وأدت مشاهد القتل الجماعي للمدنيين، ومنهم رجال دين إلى إشعال القتال الشرس بين الأقليات العرقية والدينية وإلى فرار جماعي من سوريا. وشهدت الدولة التي وصفت بأنها نموذج للتعددية العرقية والطائفية وللتعايش المتبادل بين الأديان تحولات دراماتيكية.

وقبل الأحداث المأساوية كانت سوريا تفتخر بأنها تجمع أربعة شعوب وبتنوعها الديني. كانت جميع الطوائف المسيحية تعيش في وئام ومعهم اليهود واليزيديون. وقد انهار هذا كله بسبب إطلاق يد الجماعات المتطرفة في محاربة **الأسد**.[161]

ورغم ذلك دارت مفاوضات عديدة بين الدبلوماسيين الروس والأمريكيين وخاصة بين **لافروف** و**كيري** للاتفاق على تحديد الجماعات المسلحة في المعارضة التي يمكن أن يطلق عليها وصف «**معتدلة**». وبعد الكثير من النقاش وافقت روسيا على عدم اعتبار تنظيم « **أحرار الشام**» إرهابيًّا.

الورم السرطاني وانتشاره

أدت المأساة السورية إلى سقوط مئات الآلاف قتلى وجرحى، وتهجير الملايين داخل البلاد ومثلهم إلى الخارج. ورغم عدم دقة الأرقام إلا أنه يعتقد أن تركيا استقبلت 3 ملايين لاجئ (رغم أنه من غير الواضح إذا كان هذا الرقم يشمل مئات الآلاف الفارين بشكل غير شرعي إلى أوربا). كما استقبل الأردن 1.5 مليون سوري ولبنان 1.4 مليون. [162] وتم تدمير البلاد تمامًا. وفي حال حل السلام يومًا ما فسيحتاج الأمر إلى مئات المليارات وسنوات عديدة لإعادة التعمير.

أصبح الكم الهائل من اللاجئين يمثلون عبئًا ثقيلاً وغير محتمل على الجيران وخاصة تركيا والأردن ولبنان. وعندما أصبح هؤلاء يمثلون أزمة حقيقية في عام 2015 عبرت أمواج المهاجرين الحدود إلى الجزر اليونانية عبر بحر إيجه ومنها إلى أوروبا. ولم تتخذ السلطات التركية أية إجراءات لوقف هذه الموجة، وربما دفعوا اللاجئين للقيام بذلك لتحقيق أرباح من مساومة مع الاتحاد الأوربي على مصير هؤلاء. وقد أدى تدفق المهاجرين غير الشرعيين من سوريا ومعهم القادمون من إفريقيا عبر السواحل الليبية على البحر المتوسط إلى تصاعد الخلافات

داخل بلدان الاتحاد الأوروبي. كانت ألمانيا البلد الوحيد الذي فتح أبوابه أمامهم رغم الخسارة السياسية التي تكبدتها المستشار **ميركل** بسبب ذلك. ومع منتصف 2016م كان عدد اللاجئين في ألمانيا قد بلغ مليون شخص معظمهم من السوريين. وتخفى الإرهابيون من داعش وغيرها من التنظيمات مع آلاف المهاجرين، وقاموا بتأسيس خلايا نائمة في كل بلدان أوروبا الغربية وأصبحوا على أهبة الاستعداد لتنفيذ عمليات.

انتشر الورم السرطاني للإرهاب والتطرف في العراق وسوريا ومنها إلى عشرات الدول.

ثم شهدت منطقة الشرق الأوسط والأدنى وإفريقيا توسعًا لنفوذ «**القاعدة**» و**داعش**، و**طالبان** وغيرهم من المتطرفين. وبعد خلع الحكومات العلمانية في عدد من الدول انهارت المؤسسات الحكومية القادرة على إعاقة عمل الجهاديين. فقط بعد قيام الجيش باستعادة الاستقرار في مصر أصبح هناك أجواء من التفاؤل في المنطقة. كانت الأحداث في ليبيا تساعد على انتشار الإرهاب والتطرف وارتفاع معدلات الاتجار بالسلاح ونقل المخدرات والمهاجرين عبر منطقة الساحل والصحراء. كما مثل ذلك دعمًا لجماعات «**بوكو حرام**» في نيجيريا و«**القاعدة** في المغرب العربي» و«**الشباب**» الصومالية. وكانت فروع **داعش** تقاتل **طالبان** في أفغانستان، كما ظهرت في جنوب شرق آسيا وآسيا المركزية وفي شمال القوقاز.

وتحول الشرق الأوسط وخاصة العراق وسوريا في عام 2015م إلى منطقة جاذبة عسكريًّا وماليًّا وأيدولوجيا للجهاديين من جميع أنحاء العالم ومنهم الفرنسيون والبلجيك والبريطانيون والأمريكيون والتوانسة والسعوديون والليبيون، وكذا الروس والأوزبك والكازاخ واليوغور. ويذكر **ك. فيليبس** أن عددهم قد بلغ 30 ألفًا من المقاتلين الأجانب في سوريا[163] وهو ما يتطابق مع التقديرات الروسية.

وقد اختار الجهاديون مدينة الرقة السورية عاصمة لهم وأرادوا أن يجعلوا منها مكة العالم الإسلامي الجديد. وامتد تهديدهم إلى دول الجوار ومنها المملكة العربية السعودية.

وقامت أمريكا التي كانت تنوى قبل عام قصف **الأسد** بتشكيل تحالف دولي في عام 2014م لتوجيه ضربات إلى مواقع **داعش** في العراق وسوريا. وللأسف كانت النتائج عكسية، حيث سقط الكثير من القتلى بين السكان المدنيين أما زعماء التنظيمات الإرهابية فقد نالوا شهرة واسعة، ودعوا إلى الاتحاد ضد عدوهم المتمثل في الغرب والولايات المتحدة الأمريكية والصين وروسيا.

نالـــت التهديدات كل من لبنان وتركيا والأردن واليمن ومالي وإفريقيا الوســـطى ونيجيريا والصومال وتجاوزت التهديدات الإرهابية إلى أوروبا وروسيا والولايات المتحدة الأمريكية.

وعندمـــا حددت واشـــنطن هدفها بخلع نظـــام علماني جديد في المنطقة ســـارعت إلى تقديم الدعم إلى القوات المعارضـــة للحكومة مهما كانت الإيديولوجية التي يتبنونها. توافقت الأهـــداف قصيرة الأمد مع مصالحها. ومن هنـــا كانت محاولات تبييض وجه المقاتلين تعويلاً على نجاحهم على الرغم من التجربة المريرة الســـابقة في أفغانستان وليبيا. لذا جاء السعي إلى دفع المنظمات الإنســـانية الدولية إلى تقديم المســـاعدة إلى المناطق التي تحت سيطرة المقاتلين تحت شـــعار ضرورة «**إنقاذ الســـكان من الجوع والأوبئة**». في حين بقيت المعارضة المثقفة الواعيـــة القادرة على المشـــاركة بالفعل قي صياغة طريق نحـــو الديمقراطية خارج إطار العملية السياسية.

«ونتيجة لذلك وقعت **واشـــنطن** تحت تأثير رؤيتهـــا الخاصة للوضع والأحداث، وبدأت تنشـــط في ظل هـــذه المنظومة من المعايير غير الواقعية والزائفـــة. وظهر ذلك في اتخاذ قرارات خاطئـــة أو في نهج سياســـات متعجلة. ولا يحتاج الأمر لأن تكون خبـــيراً كبيراً لتفهم أنه في حال سقوط حكومة **الأسد** في سوريا فإن البلاد ستتعرض إلى فوضى جهادية عارمة، وتهديد لمؤسســـاتها مثلما حدث في ليبيا والعراق. ولم تكن دمشق تمتلك أي مؤسسات فعَّالة يمكنها مقاومـــة الإرهابيين حيث تم إضعـــاف أجهزة الأمن والجيش. غـــير أن الهدف الأيديولوجي الجديـــد أصبح يعمـــي الإبصار، كما أن الاطمئنان إلى عدم التعـــرض للعقاب على أفعالهم يدفعهم للاستمرار في طريقهم الخاطئ، وهو ما يؤدي بدوره إلى ارتكاب أخطاء جديدة وإلى السعي إلى تبييض وجه الجهاديين وتصنيفهم إلى «**سيئ**» و «**جيد**» وتفسير أفعالهم بوصفها ســـلوكا لإناس يائســـين أمام قمع النظام الدكتاتوري أو تقديم أي مبررات أخرى. كل ذلك يؤدي إلى إضعاف قدرة المجتمع الدولي على مكافحة وباء الإرهاب».[164]

لقـــد كان لهذا الواقـــع الوهمي الذي صنعته وســـائل الإعلام الغربية والعربية باســـتخدام تكنولوجيا المعلومات تأثير كبير على ســـلوك الزعماء الغربيين وفي الشـــرق الأوسط. لم يكن هؤلاء يرغبون في فهم التهديد الحقيقي وهو أنه في حال انهيار مؤسسات الدولة وفشل جيش النظام فإن الجهاديين ســـيفرضون ســـلطتهم (أو قل اللاسلطة) في سوريا كما حدث في ليبيا، ولكان من الممكن أن يصل التهديد الإرهابي إلى بلدان مجاورة مثل لبنان والأردن والسعودية.

وتضيف **م. خودينســكايا جولينيشيفا**: «وفي اللحظة التي اتفق فيها زعماء الغرب على شــعار «**الأســد يجب أن يرحل**» كانوا بذلك يضعون أنفســهم في موقف لا نجاة منه. لم يكن من الممكن التراجع دون فقدان المصداقية وماء الوجه والظهور أمام العالم كله في موقف العاجز عن التوصل إلى تحقيق الأهداف الجيوسياسية. أصبح الجهاديون أكثر تنظيمًا وتسليحًا على الأرض».[165]

وفي 29 ديسمبر 2014م ووفقًا للادعاء المقدم من النيابة العامة حكمت المحكمة العليا في روسيا الاتحادية بإدراج تنظيم **داعش** ضمن التنظيمات الإرهابية الدولية وحظرت نشاطها على أراضي روسيا.[166]

وأشير هنا إلى أن **فينومين داعش** أي هيكلها وأيدولوجيتها يتطلب تفسيراً خاصًّا وتحليلاً وبحثًا منفصــلاً يتجاوز إطار موضوع الكتاب. ويرى **مؤلِّــف الكتاب** أن **داعش** و**القاعدة** و**جبهة النصرة** و**طالبان** ما هم إلا أطفال ضارون وغير شرعيين للعولمة أو لو شئنا الدقة العولمة في أشــكالها التي هي عليها الآن. والتطرف الإســلامي ما هو إلا أيدولوجية الاحتجاج ضد القيم الأخلاقية والاجتماعية والسياســية في الغرب، التي تفرض على بلدان وحضارات أخرى بالقوة الصارمة أو الناعمة أحيانًا وهي أيدولوجية محكوم عليها بالفشل في النهاية.

وحتى يومنا هذا ما زالت أفعال الجهاديين تمثل تهديدًا للحضارة العالمية كلها وروسيا كجزء منها.

كل هذه العوامل أدت إلى التدخل العسكري الروسي في سوريا لاستئصال الورم السرطاني للإرهــاب في هذا البلد، ومنع أو الحد من انتشــاره، وفي الوقت نفســه الحفاظ على النظام العلماني، مع الاعتراف بضرورة إصلاحه، والتوصل في النهاية إلى تسوية سياسية.

(Endnotes)

1 https://ru.wikipedia.org/wiki/Гражданская_война_в_Сирии

2 يورتشـــينكو ف.، قضايا الأمن القومي، موسكو، معهد دراسات إسرائيل والشرق الأوسط، 2004، ص.166.

3 الحياة. 17 يناير 2015

4 Phillips Christopher. The Battle for Syria. International Rivalry in the New Middle East. Yale University Press. 2016. P. 48.

5 Demonstrations erupt across Syria as unrest sweeps on // The Scotsman. 18 March 2011.

6 https://ru.wikipedia.org/wiki/Гражданская_война_в_Сирии

7 Phillips Christopher. Op. cit. P. 65.

8 www.patriarchia.ru/. 29.02.2012.

9 См.: Phillips Christopher. Op. cit., p. 127.

10 Ibid., p. 130.

11 اتفاقية الدوحة حول تشكيل التحالف الوطني للمعارضة السورية. 11 نوفمبر 2012م.

12 خولدينســـكايا جولينيشـــيفا م.، علـــى الجانب الصحيح من التاريخ. موســـكو. 2015م. ص.50.

13 https://ru.wikipedia.org/wiki/Гражданская_война_в_Сирии

14 9tv.co.il/ntws/2013/09/25/159457.html

15 Giraldi Philip. NATO vs. Syria // The American Conservative. 19 December 2011.

16 U.S. has secretly provided arms training Syria rebels since 2012 // Los Angeles Times. June 21, 2013.

17 Phillips Christopher. Op. cit., p. 208-209.

18 www.rbc.ru./politics/27/11/2011/5703ef6b9a79477633d3a774

19 http//arabic.rt.com/news. 26.03.2013.

20 خولدينسكايا جولينيشيفا م.، مرجع سابق، ص ص 236-240

21 Selon le Général Mood. Seuls les syrien ont la clé d'une issue pacifique // Le Mond. 2012, 28 Mai.

22 خولدينسكايا جولينيشيفا م.، مرجع سابق، ص. 248

23 Phillips Christopher. Op. cit., p. 229

24 Sherlock Ruth, Blomfield Adrian. Syrian rebels launch campaign to 'liberate' Damascus // The Daily Telegraph. 17 July 2012.

25 Damien McElroy. Assad's brother-in-law and top Syrian officials killed in Damascus suicide bomb // The Daily Telegraph. 18 July 2012.

26 https://ru.wikipedia.org/wiki/Отряды_народной_самообороны_(Сирия

27 http://newsru.co.il/arch/mideast/28aug2014/syria_115.html; https://ru.wikipedia.org/wiki/Фронт_ан-Нусра

28 www.vestifinance.ru/articles/77123

29 شكاروفسكي أ.، حدود «الدولة الإسلامية. داعش»، مجلة «الرؤية العسكرية المستقلة». 15 مايو 2015م

30 islamreview.ru/video/fByAXSpl5r8/

31 Phillips Christopher. Op. cit., p. 197.

32 خفوستيك يفجيني، «الدولة الإسلامية. داعش» تضاعف نفوذها، كوميرسانت. 26 نوفمبر 2014م. ص. 8

33 ISIL renames itself 'Islamic State' and declares Caliphate in captured territory // Euronews. 30 June, 2014.

34 Regnum. 27.12.2014.

35 وكالة أنباء تاس. 11 ديسمبر 2015م

36 www.bbc.com/russian/international/2016/03/160311_is_full_story

37 الصحيفة المستقلة. 21 يناير 2015م

38 inosmi.ru/military/20151227/234929028.html

39 ISRAland - израильские новости. 12.09.2014.

40 وكالة إنترفاكس. 26 سبتمبر 2014م

41 المرجع السابق

42 وكالة أنباء «ريا نوفستي». 16 نوفمبر 2014م

43 Phillips Christopher. Op. cit., p. 130

44 www.rbc.ru/rbcfreenews/55b19f769a7947fb93423ab4

45 http://asiarussia.ru/news/6554/

46 المرجع السابق

47 المرجع السابق

48 المرجع السابق

49 www.gay.ru/news/rainbow/2015/01/17-30568.htm

50 www.interfax.ru/world/451640

51 https://russian.rt.com/article/138527

52 Phillips Christopher. Op. cit., p. 74.

53 Op. cit., 76

54 Ibid., p. 78.

55 Lesch David W. Syria: The Fall of the House of Assad. London, Yale University Press. 2013, p. 188.

56 https://regnum.ru/news/165/8834.html

57 Usher Barbara Plett. Joe Biden apologised over IS remarks, but was he right? 7 October 2014 – http://www.bbc.com/news/world-us-canada-29528482

58 Ididem.

59 Daily Telegraph. 22.09.2015; Associated Press. 23.09.2015.
60 Usher Barbara Plett. Op. cit.
61 https://en.wikipedia.org/wiki/Saudi_Arabian_support_to_Syrian_Opposition_in_the_Syrian_Civil_War
62 lb.ua/world/2013/02/26/190716_saudovskaya_araviya_priobrela.html
63 Usher Barbara Plett. Op. cit
64 www.reuters.com/…/us-iraq-security-germany-qatar-idUSKB
65 www.dailymail.co.uk/…/Cameron-uses-Downing-Street-talks…
66 Roula Khalaf and Abigail Fielding Smith. Qatar bankrolls Syrian revolt with cash and arms // Financial Times, 16 May 2013.
67 Roula Khalaf and Abigail Fielding-Smith. How Qatar seized control of the Syrian revolution // Financial Times. 17 May 2013.
68 Porter Gareth. Gulf allies and 'Army of Conquest // Al-Ahram Weekly. 28 May 2015
69 https://vk.com/topic-50879056_30306182
70 Phillips Christopher. Op. cit., p. 194
71 Blanchard Christopher M. Qatar: Background and US Relations // Congressional Research Service paper. 4.11.14 – http://www.fas.org/sgp/crs/mideast/RL31718.pdf
72 Usher Barbara Plett. Op. cit
73 https://en.wikipedia.org/…/Turkish_involvement_in_the_Syrian_Civil_War

74 Manna Haytham. Syria's opposition has been led astray by violence // The Guardian. 22 June 2012.

75 https://en.wikipedia.org/.../Turkish_involvement...

76 kropfpolisci.com/isis.cockburn.pdf

77 https://en.wikipedia.org/.../2014_National_Intelligence_Orga...

78 Turkey resolute to clear Syria›s Manbij of PYD/PKK // Anadolu Agency. 25 October 2016.

79 Phillips Christopher. Op. cit., p. 210

80 Ibid., p. 211.

81 Cockburn Patrick Whose side is Turkey on? // London Review of Books. Vol. 36, № 21: 8–10. 6 November 2014.

82 http://themillenniumreport.com/2015/11/columbia-u-research-paper-is-turkey-collaborating-with-the-islamic-state-isis/

83 U.S. Urges Turkey to Seal Border // The Wall Street Journal. 27 November 2015 - https://yandex.ru/yandsearch?text=US%20Urges%20Turkey%20to%20Seal%20Border%20&lr=213&clid=2186617

84 https://russian.rt.com/article/132488

85 CHP leader accuses gov›t of ‹protecting› ISIL, laying ground for Ankara massacre // Hurriyet. 20 October 2015.

86 Hurriyet. 16 February 2016

87 Hunter Isabel. Turkey IS supporting terrorists and Islamist groups in Syria according to leaked German government report // MailOnLine. 16 August 2016.

88 https://en.wikipedia.org/wiki/Turkish_involvement_in_

the_Syrian_Civil_War#Related_criticism_of_Turkey

89 https://news2.ru/story/385831/

90 https://en.wikipedia.org/wiki/Iranian_involvement_in_the_Syrian_Civil_War

91 How Iran Keeps Assad in Power in Syria // Inside Iran. 5 September 2011.

92 Iran boosts support to Syria // Telegraph. 21 February 2014.

93 Iran buries Guards commander ‹killed in Syria // BBC News. 5 November 2013; Saeed Kamali Dehghan. Elite Iranian general assassinated near Syria-Lebanon border // The Guardian. 14 February 2013.

94 Iran boosts military support in Syria to bolster Assad // Reuters. 21 February 2014.

95 https://en.wikipedia.org/.../Iranian_involvement_in_the_Syrian_Civil_War

96 Iran does not seek indefinite power for Assad, senior diplomat says // The Daily Star (Lebanon). April 4, 2014.

97 How Iranian general plotted out Syrian assault in Moscow // Reuters. 6 October 2015; Jay Solomon, Sam Dagher. Russia, Iran Seen Coordinating on Defense of Assad Regime in Syria // The Wall Street Journal. 21 September 2015; Israeli official: Iran mastermind went to Russia // Business Insider. 10 September 2015.

98 www.bbc.com/russian/international/2014/09/140923_israel_downs_syrian_fighter

99 Hubbard B. Al Qaeda Thrives in Syria's Chaos // International Herald Tribune. October 3, 2013.

100 خولدينسكايا جولينيشيفا م.، مرجع سابق.

101 http://news.kremlin.ru/ref_notes/1244

102 خولدينسكايا جولينيشيفا م.، مرجع سابق، ص. 259

103 Hubbard B. US Faces Dilemma in Support for Syria Rebels // International Herald Tribune. 29 April, 2013.

104 خولدينسكايا جولينيشيفا م.، مرجع سابق. ص. 285

105 Remarks by the President to the White House Press Corps. The White House. Office of the Press Secretary. 20 August 2012 – www.whitehouse.gov

106 Finaud M. Syria's Chemical Weapons: Force of Law or Law of Force? // GSCP Police Paper 2012/10.

107 Kessler G. President Obama and the 'red line' on Syria's chemical weapon // Washington Post. 6 September 2013

108 tass.ru/mezhdunarodnaya-panorama/669066

109 Une attaque au gaz aurait tué 1300 syriens // Tribune de Genève. 22 août 2013

110 Mother Agnes Mariam of the Cross. The Chemical Attack on East Ghouta to Justify Military Right to Protect Intervention in Syria // International Institute of Peace, Justice and Human Rights. 2013, p. 23, 30.

111 Ibid., p. 27

112 Remarks. John Kerry. Secretary of State Press Briefing Room. Washington DC. August 26 2013 – www.state.gov

113 Government Assessment of the Syrian Government's Use of Chemical Weapons on August 21, 2013. The White House Office of the Press Secretary. August 30, 2013 – http://www.whitehouse.gov/the-press-office/2013/08/30/government-assessment-syrian-

government-s-use-chemical-weapons-august-21

114 Phillips Christopher . Op. cit, p. 175-179.

115 McGregor R. Obama Signals shift in strategy // Financial Times. 27 August 2013.

116 Phillips Christopher. Op. cit., p. 179.

117 Allemand A. Les rebels syriens ont utilize du gaz sarin // Tribune de Genève/ 7 mai 2013.

118 Press Release from the Commission of Inquiry on Syria (chemical weapons). 6 May 2013 – http:// orchr.org/EN/NewsEvents/Pages/DisplayNews.aspx?NewsID=13298&LangID=E

119 Wroughton L. As Syria war escalates, Americans cool to U.S. intervention // Reuters/Ispos poll. 24 August 2014 – http:// www.reuters.com/article/2013/08/25/us-syria-crisis-usa-poll-idUSBRE97000E201130825

120 Phillips Christopher. Op. cit., p, 170.

121 Ibid., p. 171

122 Ibidem

123 خولدينسكايا جولينيشيفا م.، مرجع سابق.

124 www.mid.ru

125 خولدينسكايا جولينيشيفا م.، مرجع سابق. ص. 326

126 www.mid.ru

127 خولدينسكايا جولينيشيفا م.، مرجع سابق. 263

128 المرجع السابق. ص. 69

129 المرجع السابق.، ص. 264

130 المرجع السابق، ص.266

131 المرجع السابق، ص. 65

132 المرجع السابق. ص. 71

133 Perrin J.-P. L'opposition syrienne se choisit un

nouveau chef // Le Temps. 8 juillet 2013.

134 tass.ru/mezhdunarodnaya-panorama/1721384

135 www.mid.ru

136 www.rbc.ru/politics/04/06/2014/57041dea9a794761c0cea5f7

137 https://ru.wikipedia.org/wiki/Президентские_выборы_в_Сирии_(2014)

138 وثيقة الأمم المتحدة رقم S/PV.6711.

139 جلسة مجلس الأمن رقم 6810 بتاريخ 19 يونيو 2012

140 جلسة مجلس الأمن رقم 6489 بتاريخ 17 مارس 2011م

141 http://www.parliament.uk/business/committees/committees-a-z/commons-select/foreign-affairs-committee/news-parliament-2015/libya-report-published-16-17/

142 جلسة مجلس الأمن رقم 6711 بتاريخ 4 فبراير 2012م

143 Explanation of Vote by Ambassador Susan E.Rice, U.S. Permanent Representative to the United Nations, at a Security Council Adoption on the Situation in the Middle East (Syria). New York, 2011, October 4 - http://usun.state.gov/briefing/statements/2011/175027.htm

144 www.vedomosti.ru/.../10/.../660135-sovet-bezopasnosti-oon-otklonil-rossiiskii-proekt

145 Security Council draft resolution. 4 February 2012. UN Document S/2012/77

146 جلسة مجلس الأمن رقم 6711. وثيقة رقم S/PV.6711.

147 https://ru.wikipedia.org/wiki/Роль_России_в_гражданской_войне_в_Сирии

148 خولدينسكايا جولينيشيفا م. مرجع سابق. ص. 149

149 المرجع السابق. ص. 173

150 المرجع السابق. ص. 335
151 المرجع السابق .ص.336
152 المرجع السابق. ص. 346
153 المرجع السابق. ص. 352
154 المرجع السابق. ص. 353
155 المرجع السابق. ص. 354
156 المرجع السابق. ص. 86
157 المرجع السابق. ص.94
158 المرجع السابق. ص.92
159 tass.ru/amp/659895
160 خولدينسكايا جولينيشيفا م. مرجع سابق. ص. 98
161 كلمة وزير الخارجية الروسي سيرجي لافروف أثناء اجتماع رفيع المستوى لمناقشه قضية حماية المسيحيين. جينيف. 2مارس 2015م. www.mid.ru
162 inosmi.ru/politic/20160328/235881120.html
163 Phillips Christopher . Op. cit., p. 130.
164 خودينسكايا جولينيشيفا م. مرجع سابق. ص ص 78-79
165 المرجع السابق. ص. 84
166 وكالة أنباء تاس. 23 ديسمبر 2015م